روائع المسرح العالمى

٤٥

حاملة الصباع

تأليف : ريجونولد بركلى

ترجمة : صالح زكى

مراجعة : على فهمى

تقديم : دريني خشبة

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مقدمة

الموضوع الذى اختاره ريچونولد بركلى لهذه المسرحية هو من الموضوعات التى لها صلة وثيقة بتاريخنا .. وبالأحرى بتاريخ الشرق الأدنى الذى كان يمثله فى الآونة التى جرت فيها وقائع المسرحية الرجل المريض .. أو تركيا .. أو الصيد الثمين الذى كانت الدول الكبرى تقف له بالمرصاد .. يود كل منها أن يفوز منه بوجبة شهية .. فهذه روسيا لم تكن تكف عن مناوأته بمختلف الحجج .. حتى استطاعت آخر الأمر أن تتفق معه على فرض حمايتها على مسيحيى الجزء الأوربى من الدولة العثمانية ، وأن تجعل استقلال هذه الدولة بتلك الحماية حبرا على ورق .. ولم تكن انجلترا وفرنسا تجهلان أن الأمر لم يكن يقف بروسيا عند هذا الحد .. بل كانتا تعلمان أن الروس يريدون امتلاك البوغازين الخالدين : البوسفور والدردنيل ، لكى تنفذ الى البحر الأبيض ومنه الى بحار العالم المفتوحة كلها .. وتكون فى ذلك الطامة الكبرى على أطماع بريطانيا العظمى فى السيطرة على مصر .. طريقها الى الهند

واستراليا وأملاكها شرقى افريقية .. ومن ثمة اتفقت هى وفرنسا على التدخل .. وشـــدتا على يد السلطان التركى ، تعاونهما جزيرة سردينيا التى كان يطمع كاثورها المشهور فى معـــونة الدولتين لضمان استقلال جزيرته .. وفى الثامن والعشرين من مارس سنة ١٨٥٤ أعلنت الدولتان الحرب على روسيا بحجة تأييـــد تركيا فى موقفها ، ثم انضمت سردينيا الى الحلفـــاء سنة ١٨٥٥ .. ولما طالت الحرب دون أن تسفر عن فائدة جدية رأت انجلترا وفرنسا نقل المعركة الى شبه جزيرة القرم تهديدا للأرض الروسية نفسها .. وحوصرت سيباستبول حصارا طويلا داميا .. وأخذ الجرحى من الجنود البريطانيين يتدفقون على مستشفيات التمريض فى أسكدار (سكوتارى) على الشاطىء الأسيوى للبوسفور أمام الآستانة .. وكانت المستشفيات فى حالة من الفوضى وقلة العناية أثارت الرأى العام البريطانى .. وكان رئيس الحكومة البريطانية فى عهد الملكة ڤكتوريا فى ذلك الوقت هو لورد پلمرســـتون المشـــهور والذى كان يعارض مشروع قناة السويس .. والذى كان يحافظ عـــلى الرجل المريض محافظة شديدة حتى يرثه هو ، ولا ترثه روســـيا . وانتهى حصار سپاستبول بسقوط قلعة ملكوف الحصينة فى أيدى الجيوش المتحالفة .. ومن بينها قوة رمزية من الجنود

المصريين الذين خفوا لمناصرة السلطان التركى فى هذه الحرب .. وبسقوط قلعة ملكوف انكشفت مواقع الروس وأصبحوا مهددين بكارثة فطلبوا المفاوضة وانتهت الأزمة بصلح باريس المنعقد فى مارس سنة ١٨٥٦ ، والذى تخلت روسيا بموجبه عن جميع دعاواها ؛ وأعلن حياد منطقة البحر الأسود وحرية الملاحة فى نهر الدانوب والبواغيز وضمان استقلال تركيا .

وقد تحمل جنود الحلفاء فى هذه الحرب من البلايا والضحايا والمجاعة وسوء أحوال الامدادات الحربية والطبية والتموينية وقلة الملابس والأغطية الشىء الكثير الذى لا يصدق .. وكان الجنود البريطانيون هم الذين قاسوا من ذلك كله أشقى نصيب وأوفاه .. ولهذا كانت التهم تكال كيلا لوزارة الحرب البريطانية مما دفع الآنسة فلورنس نيتنجيل الى القيام برسالتها النبيلة فى النهوض بأعباء التمريض قريبا من ميدان حرب القرم هذه .. فاعتزمت أول الأمر أن تذهب لأداء مهمتها الانسانية متطوعة وبعيدا عن الدائرة الرسمية العفنة التى كانت مثالا فذا للاهمال والتقصير وعدم الشعور بالمسئولية نحو الجنود الجرحى والمرضى المعذبين ، والتى كانت الشكليات والرسميات تضاعف فسادها أضعافا مضاعفة مما كانت نتيجته وفاة عدد كبير جدا من هؤلاء الجرحى والمرضى ينيف على عدد

المقتولين فى معارك القرم المريرة .. وكان القليل من العناية بهم يكاد ينقذهم جميعا من الموت لو وجدوا من يعنى بهم ويضمد جراحهم .. ولم تكد فلورنس تعلن عما اعتزمته من ذلك حتى ثارت أمها وحتى ثار أبوها ، بل ثار ضدها كل من حولها .. اذ كيف تذهب فتاة عذراء جميلة صارخة الجمال مثلها لتعيش بين جنود فى ميعة الشباب محرومين من كل اتصال جنسى بحجة تضميد جراح الجرحى والعناية بشئون المرضى فى بلاد سحيقة مثل تركيا ، وفى غير رعاية من أولى الأمر فى الجيش الانجليزى .. وذلك فى زمن اتسم فيه الحكم الفكتورى بالتزمت وشدة الحفاظ ومراعاة التقاليد الجامدة التى فرضتها مسز جراندى التى كانت تمثل الجمود والرجعية المتثلجة على المجتمع الفكتورى المستمسك بأهداب الآداب القديمة والسلوك القويم السليم .. ولا سيما من ناحية الفتاة الانجليزية والسيدات الانجليزيات وربات الأسر بصفة خاصة ؟

وكانت الآنسة فلورنس نيتنجيل فى ذلك الوقت فى الثامنة والعشرين من عمرها .. أى أنها كانت فى زهرة العمر وميعة الشباب .. وكان شبان كثيرون يحاولون استمالتها بالغزل البرىء بقصد الزواج منها ، الا أنها كانت تصدهم وتعزف عنهم حتى استطاع حبيب جديد يسمى هنرى تريماين أن

يستميلها ويشغل جانبا غير قليل من تفكيرها .. الا أنه حينما فاتحها فى موضوع الزواج لم يجد الا ما كانت تجيب به أمثاله من قبل « من أنها غير خالية .. لقد جاءها صوت من جانب السماء يدعوها الى ما دعا السيد المسيح المخلص من قبل .. ان الصوت الهاتف المنادى يدعوها الى مهمة أعظم .. انه يدعوها .. بل ينتدبها :: لانقاذ الانسانية المعذبة فى الشرق ، حيث يموت الجرحى ويقضى المرضى من بنى جلدتها الانجليز ، دون أن يعنى بهم أحد ، أو يفكر فيهم أحد ، أو يواسيهم مواس .. » وقد آمنت فلورنس بهذا الصوت ، وها هى ذى تستعد للاضطلاع بالرسالة الانسانية العظيمة .. وكلما جادلها أبوها أو حاججتها أمها أو ذكرها أحد بالمسز جراندى وتقاليد العهد الفكتورى وآدابه وسننه الجامدة ذكرتهم هى بأن فى فرنسا جمعية من الراهبات الفتيات تسمى نفسها « جمعية أخوات الاحسان أو : Les Filles de la Charité » أنشأها القديس سنت فنسنت ده پول سنة ١٦٣٣ وشملها البابا برعايته سنة ١٦٥٥ تقوم بالذى استعدت فلورنس أن تقوم به وأن أحدا فى الدنيا كلها لم يوجه تهمة واحدة الى فتيات تلك الجمعية أو أخذ عليها ما يشين سمعتها ، وأنه قد آن الأوان لأن تقوم فى انجلترا البروتستنتية

ويسرع الشفاء على أجنحة الأمل والرجاء الى كل مريض .. ومن هنا أطلق عليها أبناؤها وأحباؤها المرضى : « ذات المصباح » أو « السيدة ذات المصباح » .. أو « حاملة المصباح » كما سماها الأستاذ المترجم .

وفى ليلة قارسة البرد ، تخرج فلورنس للقاء قافلة من الجرحى القادمين من ميدان المعركة .. فاذا هى تستقبل .. من ؟ .. انها تستقبل حبها الأول والأخير .. تريماين .. هنرى تريماين .. الذى اعترفت له بحبها اياه وهما فى انجلترا .. واعتذرت له عن عدم الموافقة على ابرام عقدة الزواج .. بسبب ما تعهدت به للسماء من تلبية الهاتف الذى دعاها للقيام بمهمتها .. ومن ثمة فالحب كله للسماء .. لله .. للواجب .. « ولننس يا هنرى لبانات أنفسنا الى حين .. » ونسى هنرى لبانات نفسه .. لكنه لم يستطع البعد عن فلورنس .. فتطوع فى الجيش .. وسافر الى الشرق .. وذهبوا به الى القرم .. وجرح تحت أسوار سپاستبول .. وحمل من هناك الى أسكودار .. لتلقاه حبيبة القلب ومنية النفس .. وليموت بين يديها بعد قليل .. وبعد أن بكت واستنجدت بالسماء أن تنقذه لها .. ولكن السماء تفعل ما تريد ..

وتسلم فلورنس أمرها الى الله الذى أرسل اليها صوته

من قبل .. فتصل مهمتها وتستمر فى تمريض الجرحى حتى تنتهى الحرب .. وتعود الى أرض الوطن ، وتكون آخر من يغادر أسكودار فى يوليو سنة ١٨٥٦ .. وحينما تصل الى انجلترا تهب الصحافة وتهب الأمة كلها لتمجيدها والاشادة بذكرها ، وتمنحها الدولة مبلغ خمسين ألفا من الجنيهات اعترافا بفضلها وحميد جهادها ، لكن فلورنس التى لم تطمع فى دنيا قط تنشىء بهذا المبلغ أول دار لتدريب الفتيات الانجليزيات على التمريض فى المستشفيات بأنواعها .. ولا تزال هذه الدار تحمل اسمها .. وفى سنة ١٨٥٨ تظهر مذكراتها فى التمريض والعناية بشئون المرضى على أحدث الأساليب العلمية والانسانية الحديثة .. كما يظهر تقريرها عن أعمال الادارة الطبية للجيش الانجليزى فى حرب القرم فيكون انجيلا للاصلاح ولنشر الوعى الانسانى والعناية بمرضى المستشفيات فى العالم كله .. بل يكون الصرخة المدوية التى تهز ضمير الانسانية فتظهر فى انجلترا تلك الدعوة العالمية الرامية الى انشاء جمعية الصليب الأحمر للعناية بشئون الجرحى والمرضى والمصابين فى الحروب والجائحات التى تتعرض لها الانسانية فى أى مكان وزمان .. وذلك على أساس انسانى بحت ، وبصرف النظر عن الاعتبارات القومية .. فهيئات الصليب

الأحمر لها الحق فى طلب الهدنة المؤقتة التى تكفى لنقل الجرحى والمصابين من أرض المعركة دون أن تفرق بين خصم وخصم ودون أن توجه عنايتها الى فريق من المتحاربين دون فريق .. وهى توالى مجهوداتها أيضا فى أيام السلم فتبذل للناس أيا كانوا معونتها ، وتتلقى المعونة من الناس أيا كانوا ، والفضل فى انشائها راجع كما ذكرنا الى مجهودات فلورنس نيتنجيل — بطلة هذه المسرحية.. وقد اجتمع فى جنيف سنة ١٨٦٣ مؤتمر دولى حضره مندوبون من معظم دول الأرض انتهى فيه المؤتمرون الى تقرير المبادىء التى تؤلف دستور الصليب الأحمر ، ذلك الدستور الذى لم يلبث أن أصبح دستورا ، كله أو جله ، لجمعيات الاسعاف والهلال الأحمر (فى الدول الاسلامية) .

وقد طالت حياة فلورنس نيتنجيل حتى كادت تبلغ من العمر أرذله .. وتوفيت سنة ١٩١٠ .. بعد أن كسبت صداقة الانسانية كلها ، وبعد أن منحتها الملكة ڤكتوريا صداقتها فى خطاب قالت لها فيه انها يشرفها أن تكسب معرفة أعظم امرأة تعيش على وجه الأرض .. وهى أعظم امرأة لأنها أدت للانسانية أعظم الخدمات .. ولم تفرق بين أبيض أو أسود أو أحمر أو أصفر .. « وأنا أتيه فخرا بأن هذه المرأة العظيمة انجليزية »

ثم أهدت اليها الملكة — تعبيرا عن رضائها السامى — بروشا ثمينا وضع تصميمه الأمير ألبرت زوج الملكة ڤيكتوريا ، فجعل له حلية من صليب سنت چورچ من الميناء الحمراء ، وطغراء ملكية تحيط بها ماسات غوال ، ومن حول الجميع نقشت آية الانجيل الكريمة :

« مباركون هم الرحماء »

وفى ربيع سنة ١٩٠٧ تنشىء الدولة وسام الاستحقاق ، ويمنحه الملك لفلورنس فى حفلة خاطفة .. وتكون هى أول من يمنحه .. ويحضر الحفلة عدد من الرجال الرسميين لا يجد أكثرهم ما يقولونه لتلك الآنسة العجوز التى بلغت قمة مجدها قبل أن يولدوا .. بل يبدو على كبير الياوران كثير من الضيق بها وبالحفلة ، ويأمر بالاسراع فى كل شىء ، لأن لديه مواعيد أخرى أهم .. مواعيد أهم بكثير من الاحتفال بتلك المرأة .. ان لديه موعدا للعشاء فى قصر الملك وامبراطور الهند .. يسبقه موعد آخر فى القصر الملكى أيضا ..

ويؤتى بالآنسة فلورنس نيتنجيل على عربة مرضى .. انها الآن عجوز شمطاء .. فى السابعة والثمانين من عمرها .. وقد أصبحت الآن روحا بلا جسد .. وبلا ذهن أيضا .. انها لا تذكر قليلا ولا كثيرا من ماضيها الحافل .. وهى لا تدرى لماذا جاءوا بها

الى هذا المكان .. ولماذا يجتمع الناس هناك هـذا الاجتماع الرسمى المتكلف .. واذا أخبرتها ممرضتها أن الاجتماع من أجلها ، ولكى يقدم اليها الوزير وسام الاستحقاق المجيد مندوبا عن الملك .. زاغت العينان الجميلتان ، ورأتا بنظرات تخترق سد الزمن وتنفذان عبر السنين كأنما تبحثان عن ماض لا تعرفانه ولا تعترفان به .. ولا تملك فلورنس الا أن تبتسم وتقول من باب المجاملة .. « هذا شيء جميل .. هذا عطف بالغ ! » .

* * *

وبعد .. فهذا هو التاريخ القريب الذى اختار منه الكاتب المسرحى ريچينولد بركلى (١٨٩٠ — ١٩٣٥) تلك الصفحة اللامعة لينقل منها مسرحيته التاريخية هـذه .. والمسرحية التاريخية فن قديم عرفه اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد .. وتألق فيه نجم اسخيلوس حينما عرض مسرحيته : الفرس ، التى خلب فيها ألباب الجماهير باظهاره روح دارا ، كسرى فارس ، تتنبأ وتصف الكارثة التى يتعرض لها جيش ولده اجزرسيس (أخشرشا) فى مياه اليونان وفوق أرضها .. وينعى على هذا الولد طيشه وتهوره وقلة بصره .. مما سوف يودى بأرواح الألوف من أبناء فارس .. وتمضى المأساة حتى

تبلغ نهايتها .. محصورة فى فترة قصيرة من الزمن .. حاملة فى تضاعيف عرضها الدرس الثمين ، والعظة البالغة للطغاة والفاتحين الذين لا هم لهم الا الغزو والتوسع وسفك الدماء .. وهو درس خال من تلك الصبغة التعليمية أو الخطب التى يقحمها كثيرون من مؤلفى المسرحيات التاريخية على هامش الموضوع .. ان اسخيلوس يعرض تلك الصفحة من تاريخ بلاده عرضا فنيا لطيفا لاتحس خلاله مطلقا بأنه انما يريد أن يعطيك درسا أو أن يلقى عليك عظة .. وهو فى هذا كان يقلد أستاذه فرينيخوس فى مأساته : « الفينيقيون » عما يشبه الموضوع نفسه ..

وقد كان التاريخ دائما موردا عذبا للمسرحيات التاريخية historical ، وبالأحرى للمسرحيات الاخبارية Chronicle التى لا تخوض فى صميم التاريخ نفسه بقدر ما تدور حول حادث أو خبر من أخبار التاريخ أو حول شخصية تاريخية تركت فى أحداث عصرها أثرا عاما أو عادت على أهل جيلها بفائدة عامة ، وبهذا تكون قد أثرت فى أحوال المجتمع نفسه أكثر مما أثرت فى مجريات المعارك الحربية .

وقد لا نخطىء اذا لاحظنا أن معظم المسرحيات الكلاسية والرومنسية هى من هذا النوع ، واذا جاز أن نستثنى منها شيئا

فانما نستثنى المسرحيات المستمدة من عالم الأساطير والخرافة وان انتسبت من بعيد أو قريب الى التـاريخ .. ومن هنـا ما يشترطه الكلاسيون والرومنسيون من وجود الجو الملكى والبيئة والشخصيات الأرسـتقراطية فى جميـع مسرحيات المذهبين ..

وبهذا تدخـل معظم مسرحيات اسخيلوس وسوفوكلس ويوريبسيدز ، ومسرحيات غيرهم ممن لم تصلنا الا نبذ قصيرة من روائعهم ، فى حيز المسرحيات التاريخية ، وبالأحرى ، فى حيز المسرحيات الاخبارية التى تجرى عـلى هامش التاريخ أكثر مما تدخل فى صميم التاريخ ولبابه ..

وقد عادت المسرحية التاريخية أو الاخبارية الى سالف مجدها فى عصر اليزابث ولا سيما على يد مارلو الذى تألق فى مآسيه : تيمورلنك وادوارد الثانى ومأساة ديدو .. وغيرها من مآسيه المشـهورة التى تأتى عـلى هامش الأحـداث والشخصيات التاريخية .. وقد كان مارلو بالرغم من رومنسيته يجرى على سنن الكلاسيين فى اتباع الأسلوب الشعرى الفخم وتوفير أسباب الجمال الفنى لمآسيه .. وعـدم الخوض فى التفصيلات التاريخية المملة التى ربما ذهبت بخصيصة التركيز المسرحى المنشود .. وهذا هو ما ورثه عنه معاصره وتلميذه

الخالد وليم شيكسبير .. وما جرى عليه معظم شعراء عصر اليزابث المسرحيين .. بل هو ما فعله شعراء الكلاسية الحديثة فى فرنسا فى القرن السابع عشر ، وهو ما كان يفعله كتاب المسرح الأسبانى فى عصره الذهبى ، والذين كانت مسرحياتهم جديرة بالخلود لولا تلك البطولة الكاذبة التى كانوا يزيفون بها أبطالهم .. بل هو ما كان يتبعه الكتاب الألمان الذين كانوا يأخذون بأطراف من المذهبين الكلاسى والرومنسى فى مآسيهم الاخبارية ..

ثم ظهرت فى العصر الحديث مسرحيات التراجم .. أو المسرحيات التى يترجم فيها المؤلفون لحياة شخصيات تاريخية بارزة .. وقد كان بطل هذا اللون الجديد هو الكاتب الشاعر الانجليزى المشهور چون درنكووتر (١٨٨٢—١٩٣٧) مؤلف مسرحية أبراهام لنكولن المشهورة (١٩١٩) ومسرحية مارى ستيوارت (١٩٢٢) وأوليڤر كروموبل وروبرت لى (وكلتاهما من انتاجه فى سنة ١٩٢٣) .. وقد بدأ هذه السلسلة من مسرحيات التراجم بعد أن كتب سلسلة لطيفة من المسرحيات الشعرية .

ونحن حين نقول ان چون درنكووتر كان بطل هذا اللون لا نغفل ما كتبه چورچ برنرد شو عن قيصر وناپوليون

والقديسة جوان وتلميذ الشيطان الخ .. الا أننا لا ننسى أن شو كان يكتب ليسخر من التاريخ ومن رجال التاريخ ، ولم يكن يصور حقبة تاريخية أو شخصية تاريخية تصويرا واقعيا .. ومن ثمة كانت مسرحياته التاريخية أقرب الى الملاهى .. بل كانت ملاهى ذهنية بالفعل .. منها الى أى شىء آخر .. أما جون درنكووتر فقد جمع فى مسرحياته التاريخية الاخبارية بين أسلوبى مسرحيات التراجم والمسرحيات الذهنية أو مسرحيات الأفكار ، وبذلك تسامى فوق المذهبين الواقعى والطبيعى .. أى أنه لم يصور الواقع كما كان .. وربأ بمسرحه عن المذهب الطبيعى الفتوغرافى فلم يكن مجرد آلة تسجل الحوادث الهابطة ويتعمد الجرى وراءها تعمدا .. لقد كان ينشد مثلا عليا يبشر بها ويدعو اليها .. ولكن فى غير بعد عن الفن أو اغراق فى الأسلوب التعليمى المكشوف الذى يضطر الكاتب الفقير الى الحاسة الفنية الى الوعظ والخطب السمجة .. لقد صور لنا فى مسرحيته أبراهام لنكولن ذلك الجهاد الروحى الأسمى فى سبيل الحصول على الحرية حتى لو سلك الانسان فى سبيلها تلك الوسيلة الكريهة .. وسيلة الحرب والمعارك الدامية .. ان الحرب فى نظر لنكولن ليست شيئا كريها تعافه النفوس الأبية اذا لم يكن منها بد للتحرر

وارغام المتغطرسين على احترام خصومهم .. ومن ثمة وجب علينا أن نخوضها بحزم وعزم وصلابة ولكن فى غير لدد ولا بدافع الشهوة للانتقام .. ولا يصح أن يكون هدفنا من الحرب هو سحق العدو والقضاء عليه ما دمنا قد انتصرنا .. بل يجب أن يكون هدفنا هو خلق مبادىء جديدة ومفاهيم أخلاقية وانسانية جديدة تتولد فى نفوسنا من صلصلة الصراع وجيشان النفوس الراغبة فى الحرية ..

ودرنكووتر فى مسرحيتيه أوليفر كروميل وروبرت لى يستغل الأحداث التاريخية فى عرض مشكلات لا تزال تهم المجتمع .. أما فى « مارى ستيوارت » فيعرض لنا دراسة أكثر اتصالا بالمجتمع حيثما كان وفى أى عصر كان .. انه يدرس روح المرأة .. المرأة التى لا تجد فى رجال الدنيا كلها رجلا واحدا تجتمع فيه المثل العليا التى تهواها وتشغف بها .. وتلك هى مارى ستيوارت ملكة سكتلندة البائسة التى كانت تتعشق فى كل من محبيها الثلاثة مثلا أعلى لا يتوفر الا فى أحدهم دون صاحبيه .. لقد كانت تتعشق القوة والجمال والعاطفة .. القوة فى الأول وليس فيه الجمال ولا العاطفة ، والجمال فى الثانى وليس فيه القوة ولا العاطفة ، والعاطفة فى الثالث وليس فيه القوة ولا الجمال .. ولم يكن فى هيامها

باحدى هذه الخـــلال فى واحد من الثلاثة خيـــانة للحبيبين الآخرين .. لأنها حينما تكون مع أحدهم لم تكن تذكر فيه الا ما يتميز به من خلقه وخصيصته .. وهكذا يكون عيبها هو أن مثلها الأعلى أوسع من أن يجتمع فى رجل واحد من أهل الدنيا جميعا .. وهكذا أيضا نجد درنكووتر يضفى على هذه المسرحية جوا خارقا للطبيعة قل أن نجد له مثلا فى مسرحية من المسرحيات .. الا فى مسرحيتنا هذه : « ذات المصباح » .

* * *

وقد تحدث أستاذنا ألارديس نيكول فى كتابه « الدرامة البريطانية » عن بيركلى ريچينولد مؤلف هذه المسرحية فوضعه ووضع مسرحيته — بل مسرحياته كلها — فى الفصل الذى خصصه للكلام عن المذهب التعبيرى .. ذلك المذهب الذى أشرنا اليه فى مقدمتنا لمسرحية « الأم » كما عرضنا له عرضا غير قصير فى كتاب « أشهر المذاهب المسرحية » .. والذى نوجز القول فيه هنا فنذكر أن من أهم مبادئه :

١ — استبطان النفس الانســـانية .. أى تعمق أغوارها والكشف عما يضطرب به العقـــل الباطن من خفايا وأسرار وتجارب .

٢ — ويكون ذلك بايقاع هـــذه النفس فى أزمة روحية

لا ينفك الكاتب يزيدها حدة وشدة حتى تتجرد النفس آخر الأمر مما تتغلف به من حجب وأستار ، وحتى تبدو لنا فى النهاية .. نهاية المسرحية .. روحا عارية لا يسترها أى شيء مما كانت تتشبث به من عادات أو احتفال بالآداب والتقاليد أو ما كانت تدعيه من شجاعة أو جرأة أو استمساك بوجهة من وجهات النظر .

٣ — ويستعين الكاتب على هذا باللغة العادية والأسلوب الدارج الذى لا يعرف الصنعة أو التكلف .. بل الأسلوب الخاطف الذى يعطيك المعانى مجملة وشبه ناقصة فى أكثر الأحيان .. لأن المذهب التعبيرى يؤثر الايحاء والرمز ولا يعرف الاطناب والافاضة .

٤ — ويستعين أيضا بالخرافات الشعبية التى يقدسها السواد .. لأن هذه الخرافات لها سلطانها القاهر على نفوس العامة ، وهى التى تؤلب العقل الباطن وتثير الضمير العامى فلا يعرف له فكاكا منها .

٥ — واذا كان العقل الباطن هو مستودع التجارب ومأوى الخرافات فلابد من الاستعانة بالأجواء التى تثير هذه الخرافات وتستجيش التجارب القديمة .. ولتوفير هذا الجو يحسن حشد مناظر المسرحية بالأركان المعتمة وبالأشباح

والزواحف والأصوات التى تثير الرعب فى القلوب كدق الطبول الرتيب وطلقات الرصاص من بعيد والموسيقى الوحشية .

٦ — ويحسن ، بل يجب ، أن يقتصر الكاتب على بطل أو بطلة واحدة للمسرحية ، على أن تكون الشخصيات الأخرى كلها أشبه بعوامل أو أضواء مساعدة تتجه كلها الى الشخصية الرئيسية القائمة بالبطولة ، تزيدها وضوحا وتيسر كشف ما فى ضميرها من خبايا وخفايا .

٧ — واستعمال النجوى Soliloquy من مميزات المسرحية التعبيرية .. وذلك لأن الانسان حينما يناجى نفسه وهو منفرد ينفض كل ما تنطوى عليه تلك النفس من أسرار .. ويكون فى هذا اعتراف تلك النفس بحقائق الموقف الذى تعانيه والأزمة التى تكابدها .. وبهذا الاعتراف تنكشف النفس وتعرى الروح ، ويتجرد البطل أو البطلة من الأغلفة والحجب المصطنعة التى فرضها المجتمع علينا جميعا .

٨ — ولما كان غرض المسرحية التعبيرية هو تجريد النفس على هذا النحو ، كان لابد من اغفال المذهب الواقعى اغفالا يكاد يكون تاما فى الاخراج وفى الالقاء وفى التمثيل .. فيكون الاخراج حافلا بما ذكرنا من مناظر غريبة شاحبة ومن أشباح وأرواح ومساقط ضوئية فى مواقع بعينها من المنظر ، ويكون

الالقاء أشبه بالذى يتكلم وهو نائم فهو لا يملك زمام الكلمات ويكون التمثيل أشبه بحركات المذعور المخمور الذى ذهبت بنفسه المخاوف .. ولهذا قد يستعين المخرج بالأقنعة التى تستر واقع الأوجه ، أو المكياج الذى يخفى معالم الوجوه الحقيقية المألوفة .

٩ — ويحسن ألا تتألف المسرحية التعبيرية من فصول كبيرة .. بل أحرى أن تتألف من مناظر قصيرة متتابعة يسرع أحدها فى اثر الآخر .. والسبب فى هذا أننا نصور دخيلة النفس الانسانية وغرائب ما يجيش فى العقل الباطن .. والعقل الباطن كما وصفه علماء النفس مخزن مهوش غير منتظم لتجارب متناقضة .. منها ما هو حلو .. وما أقل هذا الحلو — ومنه ما هو مر مفزع مخيف .. وما أكثر هذا المر المفزع المخيف .. ثم انه يندر أن يثبت شيء من هذه التجارب على حال ، الا كما تثبت السحابة تدفع بها الريح فتغيرها وتبدلها أشكالا وألوانا حتى تأتى بسحابة غيرها تحل محلها لتصنع بها ما صنعت بالسحابة السابقة وكما سوف تصنع بالسحابة التالية .. هكذا حتى تنتهى الرواية .. والتى تنتهى كأنما هى حلم .. ان لم تكن بالفعل كابوسا مفزعا .

هذا وان كان من المستحسن أن يكون المشهد الأول

مشهدا واقعيا صرفا .. لأنه مشهد البداءة من عالمنا الواقعى الى عالم ما وراء الواقع .

* * *

ونكتفى بهذا القدر من معالم المذهب التعبيرى لنتساءل : الى أى حد تنطبق هذه المعالم — كلها أو جلها — على مسرحية « ذات المصباح » ؟

ان المسرحية هى من مسرحيات التراجم الاخبارية البديعة بلا شك ، فنحن نلقى مس فلورنس نيتنجيل فى الفصل الأول ، بل فى المشهد الأول من هذا الفصل وهى فى الثامنة والعشرين من عمرها .. ثم نتركها فى المشهد الأخير من الفصل الأخير وهى فى السابعة والثمانين من عمرها .. نلقاها فى أول المسرحية وهى فتاة يانعة متفتحة كورود الربيع ثم نتركها فى آخرها وهى لم تعد تعلم من بعد علم شيئا .. وبعد أن يكون الكاتب قد ترجم لحياتها كلها ترجمة بديعة وافية حتى لم يكد يغفل من دقائق هذه الحياة كلها شيئا .

والمسرحية فى أربعة فصول كل منها فى مشهدين ، أى أنها كجميع المسرحيات التعبيرية تشب بنا فى مشاهد كثيرة قد تطول وقد تقصر ، الا أنها مع ذلك مشاهد كسحب الصيف لا تلبث أن تقشع .. والمسرحية التى يطول زمن فعلها حتى يبلغ ستين

عاما لا يملك كاتبها الا أن يثب عبر الستين وثبا .. ووثبا خاطفا .. ففى المشهد الأول تكون فلورنس فى السابعة أو الثامنة والعشرين من عمرها .

وفى المشهد الأول من الفصل الثانى نراها وهى فى الرابعة والثلاثين .

وفى المشهد الأول من الفصل الثالث تكون قد بلغت الحادية والأربعين .

وفى المشهد الأول من الفصل الرابع تكون فى السادسة والأربعين بعد ربع قرن من وفاة سدنى .

ثم يقفز بنا المؤلف سبعة وثلاثين عاما بين المشهد الأول من الفصل الرابع والمشهد الثانى من هذا الفصل نفسه فنرى فلورنس نيتنجيل وقد بلغت من العمر ثلاثة وثمانين عاما كاملة .

وهكذا تستوعب المسرحية الستين عاما كلها من عمر فلورنس التى ولدت سنة ١٨٢٠ وتوفيت سنة ١٩١٠ .. ولم يفت الكاتب أن يعطينا ملخص الأحداث التى ملأت السنين السبع والعشرين الأولى من حياة بطلة المسرحية فى ثنايا أحاديث الشخصيات الأخرى .

ولهذه الغرابة فى اتساع زمن الفعل فى هذه المسرحية

لا نرى بدا من تقديم ملخص سريع لأحداثها ، ومن خلال الملخص يستطيع القارىء أن يلاحظ وجود عناصر كثيرة من معالم المذهب التعبيرى

* * *

اننا فى المشهد الأول من الفصل الأول من فصول هذه المسرحية الفريدة نكون فى حديقة منزل وليم نيتنجيل — والد فلورنس — وهو عين من أعيان الريف الانجليزى ووجيه من وجهائه .. رجل أرستقراطى له صلة بالوزراء والبارزين من رجالات المجتمع .. ويكون معنا فى تلك الجلسة لورد پلمرستون — وزير خارجية انجلترا فى تلك الآونة .. ثم مستر وليم نيتنجيل نفسه .. ثم زوجته مسز نيتنجيل التى تكبره سنا .. والتى كانت تتلهى بالرغم من الحديث الدائر ببعض أشغال الابرة .. ثم يكون معنا أيضا هذا الرجل الشهير سدنى هربرت عضو البرلمان الانجليزى الذى أصبح فيما بعد وزير حرب بريطانيا العظمى .. والذى كان شديد الايمان بفلورنس نيتنجيل ورسالتها العظيمة .. ومن ثمة لم يكن يدخر وسعا فى مناصرتها .

ويدور الحديث حول كتاب : « الماضى والحاضر » الذى كان يحمله لورد پلمر ستون وهو من مؤلفات الكاتب الأسكتلندى المعاصر توماس كارليل الذى كان يشغل الرأى

العام الانجليزى فى ذلك العهد ، ويهزه بآرائه الطريفة هزا عنيفا .. وكان بلمرستون يصف أقواله بأن معظمها هراء فى هراء .. الا أن منها ما هو جدير بالاعجاب لما فيه من تفكير عميق .. ولا سيما تلك التى كان يدعو فيها كل انسان الى أن يكون له عمله .. عمله الدائب المثمر .. وتسخر مسز نيتنجيل وتصف دعوة كارليل بالسخف .. لأن الفقـراء وحدهم هم الملزمون بأن يعملوا لكى يعيشوا (!) وهنا يتدخل هربرت سدنى ليقرر أن على كل انسان أن يعمل عملا مفيدا للانسانية فى مجموعها بصرف النظر عن أن يكون عمله وسيلة لكسب العيش أو لم يكن .

ومن هذه اللمسات الحوارية الخاطفة نفهم عقلية كل من المتحدثين .

ويتضح أن الكتاب ملك لبطلة المسرحية مس فلورنس نيتنجيل .. ويسخط هذا أمها مسز نيتنجيل .. لأن الأفكار التى تحملها أمثال هذه الكتب هى التى تتلف أخلاق الشباب وتسمم عقول الصغار .. وكان يجب على الحكومة منع تداولها .

ثم تدخل على الجماعة فتاة جميلة فى العشرين من عمرها .. فاذا هى زوجة هربرت سدنى .. أو اليزابث .. التى تقوم فى المسرحية بدور هام .. لأنها الطرف المقابل لمس فلورنس ..

والتى تقف على الضد منها فى كل شىء .. فى آرائها وسلوكها فى الحياة .. ونظراتها الى المثل العليا التى تعتنقها فلورنس .. تلك المثل التى تفزع منها اليزابث .. تفزع منها على نفسها وعلى زوجها سدنى الذى يؤمن بها وبصاحبتها فلورنس ايمانا عميقا متأصلا .. انها المثل والمبادىء التى كان يؤمن بهـا مستر نيتنجيل والد فلورنس ، ويبشر بها من قبل .. والظاهر أنه أورثها ابنته .. ولسوف يورثها جميع أحفاده وذراريه .. ان والدة فلورنس تصف ابنتها فتقول :

« ان هذه الفتاة .. فلورنس أعجوبة العجائب ! انها فتاة يشغف بها نصف رجال لندن .. ويتمنى كل منهم أن تكون له زوجة .. لكنها تشيح عنهم .. لأنها تريد أن تعمل وتكدح .. انها لا تريد أن تكون دوقة .. ولا تريد أن تشتغل بالسياسة .. ولا أن تكون فنانة .. ولا عازفة بيانو .. انها تريد أن تلتحق بمستشفى سلسبرى لتكون ممرضة عادية ! .. فهل رأيت ؟ ممرضة عادية تعيش بين الممرضات المخمورات .. وسط فوضى المستشفيات والفساد الذى يضرب بأطنابه فيها ! .. » .

ويبتهج لورد پلمرستون ويقول ان فلورنس خير من يصلح هذه الفوضى ويقضى على أسبابها اذا عملت فيها .. أما سدنى فيكاد يرقص طربا ويصف فلورنس بأنهـا قديسـة وتكاد

والدة فلورنس أن تجن لتحمس سدنى لابنتها وتشجيعه اياها للمضى فى هذا الطريق !

ثم يدخل على الجماعة شاب وسيم فيه رجولة وحيـوية ومن ورائه فتاتان يانعتان .. أما الشاب فهو هنرى تريماين H. Tremayne .. فى الثانية والثلاثين من عمره وقد ملك عليه حب فلورنس زمام قلبه .. وأصبح زواجه منها حلمه الذى يداعب خياله .. وأما الفتاتان فهما فلورنس بطلة المسرحية وهذه الفتاة سلينا بريس بردج التى صحبتها فلورنس — كما تقول أمها — لتدرأ بها عن نفسها مغازلات تريماين .. ذلك الشاب الخجول المؤدب المهذب الذى حاولت والدة فلورنس أن تهيىء له الفرص ليخلو بابنتها وليعرض عليها يده .. ولكن فلورنس كانت تفهم .. وكانت تحبط خطط أمها .. لأنهـا لا تريد أن تتزوج .. بل تريد شيئا آخر أسمى فى نظرها من الزواج ..

وتسألها عما اذا كانت قد استمتعت بنزهتها فى الغابة ؟ ولكن فلورنس تقول انها لم تكن فى الغابة .. بل كانت .. فى المستشفى .. تعنى بمرضاها وتسهر على راحتهم .

وتكاد مسز نيتنجيل أن يجن جنـونها .. لأن خطتها

لم تتم .. ولم تلق فلورنس خطيبها تريماين لانشغالها عنه بجراح المرضى ونفاثات المصدورين .

ولكن والد فلورنس يبتهج .. ويؤمن بأن ابنته قد ثقفت مثله على وجهها !

وتطلب اليزابث — الصورة العكسية لفلورنس — من فلورنس نيتنجيل أن تسمح لها ولزوجها هربرت سدنى بالذهاب معها لزيارة مرضاها بالمستشفى .. لأن هربرت يفكر فى انشاء دار للنقاهة يقيم بها المرضى من مستأجرى أملاكه .. وذلك على قطعة من الأرض قريبة من البحر .. ويريد الاطلاع على الأحوال فى المستشفيات قبل انشاء تلك الدار .. وتبتهج فلورنس وتعد بالذهاب معهما .. لكن والدتها تسألها عما أعدت لتريماين المسكين .. خطيبها المنتظر — الذى أفسدت شهيته بالحديث عن المستشفيات والمصدورين ؟

وتروغ فلورنس من أمها ومن تريماين كما يروغ الثعلب .. حتى اذا خلا المكان بفلورنس ولورد پلمرستون انتهزت فلورنس فرصتها وراحت تطلب النصيحة من أكبر ساسة بريطانيا .. ماذا تعمل .. وما الميدان الذى يخلق بالمرأة أن تعمل فيه ؟ .. حتى اذا ذكرت ما تحلم به من العمل فى ميدان التمريض

استحسن لها ذلك .. لأن التمريض هو أحسن الأعمال للمرأة .. ولكن :

« بشرط أن تعدى نفسك له ولا تكتفى بالتحمس دون استعداد .. واذا واتتك الفرصة فاغتنميها .. وقد عرضت على مناصب يسيل لها لعاب الأساطين من الناس .. لكنى كنت أرفضها .. كما رفضت منصب حاكم الهند .. لأننى لم أكن مستعدا لولاية تلك المناصب .. وفضلت العمل بالبرلمان حتى ثقفت أعمال الحكومة جميعا وأصبحت حجة فيها جميعا .. وصرت مستعدا لولاية أسمى المناصب فلم أتردد .. » .

وتقص عليه فلورنس قصة حياتها وعملها بالتمريض فى ايطاليا وفى مستشفيات أخوات الاحسان بباريس ومصحات الأديرة بألمانيا .. وكيف استطاع أحد القسس انشاء دار للتمريض تضم مئات الأسرة .. غير عابىء بما وجهه اليه الثرثارون والمشقشقون من ألوان النقد .. ولولا ايمانه بجدوى مشروعه لتخاذل عنه وانصرف عنه ..

ويستوثق پلمرستون من حسن عزيمة فلورنس وقوة تصميمها .. لكنه يرى أن يستوثق أيضا مما اذا كان هذا التصميم يعتمد على ذخيرة روحية يدفعها دافع من وحى Vision أو الهام سماوى .. أو رؤيا من تلك الرؤى الصادقة

التى تصلنا بعالم الروح .. فاذا هى تجيبه فى استحياء .. وفى خوف من أنه قد لا يصدقها :

« منذ عشر سنوات .. وبينما أنا فى هذه الشرفة .. وفى ظلام الليل الدامس .. اذا بى أراها تتغير فجأة .. وتصبح شيئا واسعا شاسعا .. واذا بالنور ينبثق من جميع النوافذ .. واذا فوج من الناس يتزاحمون على الأبواب فى هرج ومرج .. وهم يحملون أشياء أشبه بالحشايا والمراتب .. واذا بينهم شخص يمشى وفى يده مصباح .. ثم اذا بى أشعر أننى صاحبة هذا المصباح .. وأن المكان الذى له تلك الصورة مكان بعيد سحيق .. وأنه مستشفى كبير .. كبير .. ثم اذا أنا أسمع صوتا ينبعث من أغوار نفسى .. واذا الصوت يناديني : استعدى ! .. ولما أخبرت والدى .. خلا الى والدتى .. وظنا أننى مريضة أو مختلة .. فأعطيانى دواء .. لكننى لم يساورنى الشك فى أنه الوحى .. النداء .. النداء السماوى الذى جاء ليلقى على كاهلى عبئا ثقيلا .. عبئا لا يقوى عليه غيره .. » .

ويؤمن لورد بلمرستون بصدق فلورنس .. لكنه يوصيها بحسن الاستعداد .. والمرانة للعمل الجليل الذى ينتظرها .. ويشجعها .. وينصرف ..

ثم يدخل سدنى الذى يبدو عليه أنه كان يعرف ما خفى

عـلى غـيره من أمر فلورنس ، فاذا هو يشجعها أيضا .. ويصارحها بأنه مستعد الى مناصرتها الى آخر حد فيما تعتزم القيام به .

* * *

وفى مطلع المشهد الثانى نرى فلورنس وحدها فى حـالة من حالات النجوى .. انها محيرة بين هذا الخاطب الذى يحبها ويتمنى لو تقبله زوجة .. وبين الرب الذى يناديها لتخدمه بخدمة الانسانية كلها .. « وهل يستوى حب الرجل وخدمة الرب ؟ ! » :

ويأتى تريماين .. تريماين الحبيب فيكاشفها بحبـه .. ولا تنكر أنها تحبه .. لكنها لا تريد أن تخون النداء أو تتنكر لصوت الرب .

ويتناقش الحبيبان ، ويحاول تريماين اقناعها بأن ما تتوهم أنه نداء من السماء ما هو الا محض خيال ووهم .. لأن وظيفة المرأة الأولى التى كرستها لها السماء هى الزواج وبناء الأسرة وانجاب البنين .. وهذا هو النداء الصحيح الأول الأزلى .. مبدأ الحيـاة وغايتهـا .. انه نداء الجنس منبت الحيـاة واستمرارها ..

وتستحلفه فلورنس ألا يحاول اغراء جسدها على حساب

روحها .. لأنها صممت على ألا تتزوج بالرغم من حبها اياه .. لأنها آمنت بالنداء .. ولأن ثمة خلائق كثيرة معذبة تنتظر منها العون .. خلائق تشقى فى مستشفيات بعيدة .. وهى قد عاهدت ربها على أن تكرس حياتها لخدمة هذه الخلائق باسم الرب .

ثم تسمو بوجهها الى السماء لتطلب اليها أن تبقى لها صداقة تريماين وحبه وأن تعينها على القيام بمهمتها وانجاز رسالتها .

* * *

وتمضى سنوات ست أو سبع حينما نكون فى الفصل الثانى — وفى المشهد الأول منه .. وتكون فلورنس فى الرابعة والثلاثين .. وهى الآن قلب لجنة السيدات النابض .. اللجنة المشرفة على بيوت التمريض .. وتكون معها اليزابث — صورتها العكسية — وزوجة أكبر أنصارها هربرت سدنى .. تناقشها فيما اعتزمته من الذهاب الى الشرق متطوعة لتخدم جرحى الجيش البريطانى من ضحايا حرب القرم .. وتصور لها هذا الذى توشك الاقدام عليه على أنه جنون مطبق .. لأن العذارى لا يلقين بأنفسهن بين الجنود الظامئين المتعطشين الى الجنس ..

ولكن فلورنس تحاول مع ذلك أن تغرى اليزابث بالتطوع والذهاب معها .. الا أن اليزابث تجيبها بأنها : « امرأة .. وليست قديسة مثلك ! ولو أننى رأيت فى تشجيع سدنى لك أى اضرار به لما سمحت له بمسايرتك ! » .

ثم تدخل والدتها مسز نيتنجيل التى سمعت توا بما تعتزمه ابنتها من الذهاب الى أسكودار (أوسكوتارى) للعناية بشئون المرضى فتثور بابنتها وتعنف عليها عنفا شديدا .. وتأسف على أن أباها قد سوى بينها وبين اخوتها فى توزيع أملاكه ، لأن هذا هو الذى شجعها ومد لها فى حبل غيها .. ثم تنكر عليها هذه الجرأة فى السفر الى ذلك البلد البعيد لخدمة الجنود وهى الفتاة العذراء ابنة الأسرة الكريمة .. لكن فلورنس تجيبها ان الفرنسيات من أخوات الاحسان يفعلن هذا ولا ينكره عليهن أحد ، ولم يتهمهن أحد بأنهن جانبن خلة الفضيلة ولا خالفن واجبات الشرف .. ويشتد النقاش بين الأم وبين الابنة .. ثم تتركها الأم وتتركها اليزابث .

ويدخل تريماين .. الحبيب المدنف .. الذى ندرك من حديثه أنه راح يتسلى عن حبه بالضرب فى أرجاء العالم ، وارتياد الصحارى والقفار مستكشفا متعرفا ..

ويعرف منها ما تعتزمه من السفر الى الشرق للعناية بأمور

جرحى مواطنيها فى حرب القرم فيناقشها فى ذلك ، ويظهرها على استحالة قيامها بمهمتها هناك ، لأن نظام الجيش الصارم لا يسمح « للفضوليين بالتدخل » .

وتبسم فلورنس .. وتعود الى ترديد مسألة « النداء » وأنه هو الآمر الناهى .. ولما يزل ..

ولا ييأس تريماين من اقناعها بعدم السفر ، ويبدى استعداده بأن تختار أية قطعة من الأرض ليبنى لها مستشفى أحلامها ، الذى تسهر على شئون المرضى فيه .. لكنها تسأله عما يكون حال الجرحى والمرضى فى حرب القرم .. وتلك الفوضى فى مستشفيات أسكودار وما تصفه الصحف ويردده الشعب من اهمال أبنائهم هناك وتركهم لمصيرهم دون أن ينعموا برعاية أحد .. ودون أن يدركهم الرحماء برحمتهم !

وعند ذلك تعلم أن لورد پلمرستون وهنرى سدنى قد حضرا لمقابلتها فتستأذن تريماين الذى يقول لها انه ذاهب .. ذاهب ليجوب آفاق الدنيا من جديد ..

ويدخل پلمرستون ويدخل معه سدنى .. واذا هما يعرضان على فلورنس السفر من قبل الحكومة ورعاية شئون مستشفيات أسكودار فى الشرق .. واذا هى تأخذ العرض مأخذ الجد .. وتشترط أن تكون هى الآمرة الناهية هناك ..

وينزل پلمرستون الآمر الناهى على شروطها .. عسى أن تنقذ المستشفيات من الفوضى .. وتنقذ الجرحى والمرضى البريطانيين من الموت .. وتنقذ سمعة بريطانيا (العظمى)من البوار .

وهنا تدخل أمها التى جاءت مزمعة اثناء عزيمة ابنتها عن السفر .. لكن پلمرستون يزف اليها التحول الجديد نفسه وهنا يتحول موقف الأم .. وتكاد أن تجن من الفرح !

وتقول مسز نيتنجيل :

« ابنتى .. لشد ما كنا حمقى حين جهلنا قدرك .. اننا فخورون بك ولا ندرى كيف نسدى الشكر الى الله .. » .

* * *

وننتقل فى المشهد الثانى من الفصل الثانى الى مستشفيات الجيش البريطانى فى أسكودار .. حيث تتم المعجزة .. وحيث نرى هذا الملاك الأبيض المجد الثابر الذى لا يكل ولا يمل ولا يتعب .. والذى يغالب المرض والطبيعة وأخلاق الناس ، ويقهر الروتين السخيف الذى هو أس البلاء ومصدر الفساد الادارى حينما حل .. والذى يرى فى جنح الليل وهو يحمل المصباح ليمر على أقسام المستشفيات ويوفر الراحة للمرضى ويواسى الجرحى ويدخل فى جراحهم بلسما وفى نفوسهم شفاء ورضا .. وحيث يفاجأ بحبيب القلب ومنية النفس ، تريمان ،

محمولا على نقالة وهو يجـود بروحه التى يلفظها بين يدى فلورنس .. لأنه ذهب الى المعركة التى تخوضها حبيبته ليبذل فيها روحه .. وحيث تبكيه فلورنس وتصلى من أجـله .. لكن القدر .. أو السماء .. أو النداء .. لا يفلته .. ومع ذلك لا تيأس فلورنس ، بل تمضى فى مهمتها .. لأن حب الرب أعلى عندها وأسمى من حب الحبيب .

ألا ما أروعه من مشهد !

* * *

وفى المشهد الأول من الفصل الثالث نكون فى انجلترا .. ونكون فيها بعد ست سنوات من وفاة تريماين .. وبعد خمس سنوات من نهاية حرب القرم .. وتكون فلورنس الآن بالرغم من ضعفها أقوى شـخصية فى الامبراطورية بعـد لورد پلمرستون .. رئيس الوزراء للمرة الثانية .. هذا الرجل الذى يقف هو والملكة من وراء فلورنس ينفذان لها كل ما تأمر به .. ويكون سدنى على رأس وزارة الحرب يفعل لها ما تشير به فى مستشفياتها التى نمت الآن وانتظمت من ضروب الاصلاح .. لكن سدنى ناء الآن بحمله ، وتضعضعت صحته .. وهو لهذا يقدم استقالته بأمر أطبائه .. وها هى ذى زوجته اليزابث تحضر لزيارة فلورنس ولتخبرها بما أمر به الأطباء ، والا ساءت حالة

سدنى وخيف عليه . وتدهش فلورنس وتجزع ، لأن هذا يجيء فى وقت كانت هى ومشروعاتها الاصلاحية الكثيرة التى لا تنتهى فى مسيس الحاجة اليه ، بل يجيء فى الوقت الذى كان الجميع يتوقعون فيه أن يخلف هربرت سدنى لورد پلمرستون فى رئاسة الوزارة بعد أن برهن على أنه أقوى وزير ولى منصب وزارة الحرب .

وتشك فلورنس فى صحة الخبر ، وتذهب الى أن استقالة سدنى انما هى فرار جندى محارب من ميدان المعركة .. وأن هذا الفرار كان بدافع من زوجته هذه السيدة اليزابث .. ولكن اليزابث تثور .. ولا تبالى أن تتهم فلورنس بما آلت اليه صحة زوجها .. لقد تسلطت عليه بهذا الشيطان الذى تسميه الواجب مرة والعمل مرة أخرى والنداء مرة ثالثة .. وتقول اليزابث :

« لقد آن الأوان يا فلورنس لكى تعلمى حقيقة أمرك .. فيك رغبة جنونية محمومة فى حب السيطرة والغرام بالتسلط .. وفرض آرائك ومشروعاتك على الناس ، اشباعا لكبريائك وارواء لغرورك .. انك تدافعين عن الحرب باسم تمريض المرضى ومواساة الجرحى .. وعملك أو نداؤك المجنون المحموم هو الذى أوهن صحة زوجى .. بل هو الذى ذهب

بتريماين .. تريماين الذى خدعه نداؤك وجرفه التيار حتى مات بين يديك .. دعى سدنى وشأنه .. فسدنى مريض وأنت سبب مرضه .. لقد انتهت الحرب .. لكنك تحلمين بقيام حرب أخرى لتواصلى مهمتك ، ولتكونى أهلا للثقة التى وضعها الموتى والقتلى والجرحى فى عنقك .. قلت لك دعى سدنى وشأنه .. ان منصبه كوزير ، بل كرئيس للوزارة .. منصب يستهوينى ، لكن حياته نفسها أعز على من أى منصب ومن أى جاه .. » .

ثم يحضر سدنى .. فتخلى اليزابيث لهما الجو.. وتنصرف.. وهنا يصارح سدنى فلورنس بأن استقالته لم تكن فرارا .. وانما هى استعداد : « للموت ! » .. وقد جاء ليشد على يدها ويطلب لها العون من الله .. لأنها ستكون فارسة الحلبة وحدها من بعده .

* * *

وفى المشهد الثانى تكون فترة قصيرة قد مضت .. ونكون فى مكتب فلورنس الجالسة أمام أكداس من الأعمال والأوراق ... وللنظر فى المسائل الملحة التى خلفتها استقالة سدنى .. ولأنه يعرف كيف أحزنت استقالة سدنى هذه زعيمة الاصلاح فى وزارة الحربية .. وفى مستشفياتها بخاصة ، فى هذا

العصر . ولا يكاد بلمرستون يخلو الى فلورنس حتى نراها تلح عليه بأن يعد باعادة سدنى الى منصبه بالوزارة متى سمحت له صحته بذلك .. ولو طال الزمن على غيابه عنها .. وذلك حتى لا يكون مصير مشروعاتها فى الاصلاح الى الفشل .. ويعجب بلمرستون من الحاح فلورنس ، ويفهمها أن أمر عودته الى الوزارة ليس من شأنه ولا من شأنها .. انما هو من اختصاص زوجة سدنى .. السيدة اليزابث .. ثم هو من اختصاص سدنى نفسه .

ويحمى الجدل بين فلورنس التى جرفتها حمى العمل .. وبين بلمرستون العجوز المحنك الأزرق الناب الذى يأبى أن يكون تلميذا للسيدة صاحبة المصباح .. ولا يقطع التلاحى بينهما الا حضور السيدة اليزابث فجأة .. وحضورها بثياب الحداد .. وهى تتخاذل فيها واهية محطمة .. لتقول لفلورنس ان سدنى .. قد مات .. مات فى ألمانيا التى ذهب اليها — وفى صحبة اليزابث — مستشفيا .. وأنه لم ينس فلورنس قط .. « لقد كان يردد اسمك مع آخر أنفاسه فى هذه الحياة » ..

وتظلم الدنيا فى عينى فلورنس ، وتأخذ اليزابث ملء ذراعيها وهى تنشج وتقول :

« يا لله يا سدنى ! لقد كنت رئيسنا ورائدنا العزيز

المحبوب . ولقد أدركنا الآن مبلغ خسارتنا ورزئنا فيك .. ولن نراك منذ اليوم أبدا ! » :

* * *

وتمضى خمس وعشرون سنة على وفاة سدنى .. هكذا وثبا .. حينما نكون فى المشهد الأول من الفصل الرابع والأخير .. وتكون فلورنس .. أو المس فلورنس نيتنجيل كما لا تزال آنسة .. غارقة فى كومة من الأوراق والأعمال كعادتها .. وبالرغم من تقدم العمر ووهن الجسم .. وبالرغم من هذه الممرضة المكلفة برعاية ربة التمريض .. انها لا تكل من العمل ولا تمل .. وهى الآن منتشية بنجاح مشروعاتها كلها .. وهى لا تزال تعبد النظام والدقة فى مواعيدها كدأبها طوال حياتها .. وها هى ذى ترفض مقابلة المستر جلادستون الذى كان رئيسا للوزارة البريطانية فى هذا المشهد .. ورئيسا للوزارة البريطانية التى تم فى عهدها احتلال الجيش الانجليزى لمصر فى عهد الخائن محمد توفيق الذى خذل مصر وخذل العرابيين .. انها ترفض مقابلة جلادستون لأنه جاء لزيارتها من غير أن يطلب ميعادا (!!) .. وان كان قد جاء ليدبر لها ميزانيات مشروعاتها الجديدة .

وتفزع الممرضة من ابلاغ كلمات فلورنس الى رئيس

الوزارة .. لكن فلورنس تأمرها بابلاغ كلماتها اليه بنصها .. ثم تلقى عليها درسا فى وجوب اتباع النظام والجد فى مقابلة عظماء الرجال ومواجهة المشكلات بقلب لا يخشع وضمير لا يفزع ما دام النظام يتطلب هذا وذاك .

ونعجب حين نعرف أنها ترفض مقابلة جلادستون فى هذا اليوم بالذات لأنها تعده شريكها فى قتل سدنى .. لقد تآمر على صحته بارهاقه المتواصل بكثرة العمل ؟ فيا عجبا ! أليس هذا هو ما كانت تذهب اليه اليزابث — زوجة سدنى — ولا تزال تذهب اليه ؟

هل تحرك ضمير فلورنس ؟ ولماذا لا تزال تعبد الروتين والنظام اذن ؟

ثم هى تضيف الى أسباب رفضها لقاء الرئيس سببا ثالثا .. لقد جاء فى ميعاد حددته للقاء مسز هربرت .. الأرمل اليزابث .. ولا يمكن أن يحل أحد ولو كان الرئيس أو الملكة محل اليزابث فى هذا الميعاد !

وتدخل اليزابث .. وتهنئها فلورنس بأن أعمال سدنى العظيمة ومشروعاته التى كانت أحلاما قد تمت كلها الآن !

ولكن اليزابث تزم ما بين عينيها ، وتقطب تقطيبا حزينا ، ولا تبدى أن انجاز مشروعات سدنى يهمها فى قليل أو كثير .. ما دام أنها كانت سببا فى قتل سدنى !

وتسألها فلورنس عما اذا كانت تكرهها لهذا السبب ؟

وتجيبها أن : لا .. « لأن ديننا ينهانا عن كراهية الناس .. بل هو يعلمنا أن نصلى من أجلهم .. ثم ان الانسان يستطيع القيام بجلائل الأعمال اذا هو ركز ذهنه فى التأملات الدينية » .

وتسألها فلورنس وهى تبتسم : « أما كان أولى من هذه التأملات الدينية أن تشاركينا فى انجاز عمل سدنى ؟ » .

وتقول لها اليزابث : « ألا تجيبين على أى شىء الا بكلمة العمل .. العمل ؟ » .

وتجيبها فلورنس : « انك لا يشغلك الآن الا التأملات .. ولكن التأملات شىء ساكن خامد .. أما العمل فينتهى بك الى السعادة وأنت ترين النصر النهائى لمن مات .. وأنت اذا بلغت هذا النصر حق لك أن تغنى مثلى وتقولى : فلنرحلن الآن ! ان المرء اذا امتد به العمر حتى يعجزه هذا عن العمل .. فلا هو يعمل .. ولا هو ملاق الموت .. كان فى هذا عقابه .. مثلى الآن :: أتعنين هذا ؟

وتقول لها اليزابث : قد يكون هذا — ولعل هذه هى النار التى تطهرنا من ذنوبنا ، والتى لا محيص لنا من أن نصطليها جميعا !

* * *

وفى المنظر الأخير من المسرحية .. أو المشهد الثانى من الفصل الرابع .. نرانا قد وثبنا وثبة زمنية أخرى .. وثبة كبيرة جدا .. حوالى عشرين عاما أو واحد وعشرين .. لقد أصبحت فلورنس عجوزا لا تكاد تعى من أمور الدنيا شيئا .. بل هى لاتذكر من ماضيها الحافل شيئا .. اننا اليوم فى سنة ١٩٠٧ .. وها هم يقيمون لفلورنس يوبيلا ماسيا اعترافا من الدولة ومن الامبراطورية .. ومن الملك .. بفضلها على الجيش البريطانى والمستشفيات العسكرية البريطانية .. لقد كانت الملكة الراحلة ڤكتوريا .. والملك الحالى ادوارد السابع .. يتمنيان لو كانت فلورنس وزيرة للحربية البريطانية .

ولقد أقيم الحفل ليقدم كبير ياوران الملك وسام الاستحقاق الى مس فلورنس نيتنجيل التى هى الآن فى السابعة والثمانين من عمرها الطويل المديد .. والتى لم تعد تذكر شيئا من هذا العمر المديد الطويل .. وهم يقيمون هذا الحفل فى « لهوجة » وفى جهل .. لأن القائمين عليه لا يكادون يذكرون شيئا من أعمال مس نيتنجيل .. اللهم الا ما تقوله الصحف والكتب من أنها كانت يوما ما ممرضة عظيمة خدمت مرضى الجيش البريطانى وجرحاه خدمات جليلة ولا سيما فى حرب القرم .

ويحضر كبير الياوران — وهو مندوب الملك — فيسأل عما اذا كان كل شيء معدا ؟ وهو يسأل هـذا السؤال لأنه مشغول .. وليس لديه وقت .. ان لديه ميعادين فى قصر الملك أحدهما لتناول العشاء ! .. وهو لهذا يرجو ألا تكون الخطب طويلة مملة .

ويكتمل العدد .. ولكن لابد من الانتظار لأن عمدة لندن لم يحضر بعد .. وانتظار دقيقة أو دقيقتين ليس بالأمر المهم .. آه .. لقد حضر .

وتحضر ليدى هربرت أوف لى أيضـــا .. أى اليزابث الصالحة ! ولا تزال فى ثياب الحداد ! وان تجاوزت الثمانين هى أيضا ! انها لا تزال تحسد فلورنس على صـحتها التى تقاوم الزمن والتى لم يستطع سدنى مجاراتها فى نشـاطها فخر صريعا فى المعركة !

ويتقدم مديرو الأمن بسجل الأحرار الى مس فلورنس التى جاءوا بها محمولة عـلى عربة المرضى لكى توقع فيه بامضائها .. ولكن .. كيف ؟ انها لا تفهم لماذا توقع ولا كيف توقع .. ولهذا فالممرضة تمسك بأصابعها وبينها القلم لكى يتم التوقيع بأية صورة من الصور ..

وتسأل فلورنس عما جعلهم يجيئون بها .. ولماذا هـذا

الحفل .. فتقول لها الممرضة انه من أجل تكريمك والاحتفال بك .. فلا تفهم فلورنس .. وتكتفى بهذه العبارة المجاملة : هذا جميل .. هذا تلطف وعطف كبير !

ويتوالى الخطباء .. ومنهم من لا يعرف اسم أسكودار ولا يدرى أين موضعها على الخريطة .. وتتابع آيات الثناء وصدر الوزير أو كبير الياوران يكاد ينشق خوفا على العشاء الملكى !

ويقف المندوب الأمريكى وهو رئيس جمعية الصليب الأحمر هناك فيقول : — أمريكا لا تعرف الأوسمة ولا تدرى ما النياشين .. ولكنها كرمت مس فلورنس نيتنجيل مع ذلك فأقامت باسمها آلاف الدور للصليب الأحمر ومستشفيات الجيش .

ويقف عمدة لندن ليخطب .. لكنه يجد أنه نسى مذكراته فيرتجل كلمة تدل على جهله العظيم !

أما سفير امبراطور ألمانيا فيقدم لفلورنس باقة من الزهر انتقاها الامبراطور من حديقة قصره بيديه الكريمتين ..

وتلمح فلورنس فى صحوة من صحوات الشيخوخة صديقتها ليدى هربرت .. أى اليزابث .. فتقول لممرضتها : « أليست هذه مسز هربرت ؟ لله كم كانت جميلة وهى فى شبابها .. ولقد كنا صديقتين حتى مات .. »

ثم تغيب عن رشدها مرة أخرى .. فتتقدم اليها اليزابث وتسألها ان كانت لا تعرفها ؟ لكن فلورنس لا تعرفها بالفعل !

وتتقدم اليزابث اليها وتتناول يدها « لأقبل يد معاصرتى العظيمة ! » .

وتسأل فلورنس : من فعل هذا ؟

فاذا عرفت أنها اليزابث .. قالت انها قد فارقتها منذ زمن بعيد .. بعيد ..

وتسألها اليزابث ان كان قد آن الأوان لكى تغفر كل منهما لصاحبتها ؟

وتقول فلورنس : كما نغفر لمن كان آثما فى حقنا !

ثم تدفع الممرضة العربة .. وتخرج بفلورنس نيتنجيل !

* * *

وعلى ضوء هذه الخلاصة السريعة نلاحظ أن المسرحية تفضى بنا الى الحيرة حين نضعها كما وضعها أستاذنا ألارديس نيكول فى المذهب التعبيرى .. حقيقة انها تعطينا صورة من أغوار نفس فلورنس .. وأنها تقع فى مشاهد ثمانية متتابعة .. وأن فلورنس كانت تلجأ الى النجوى التى تكشف بها عن ذاتها كما رأينا .. وأنها كانت تؤمن ايمانا عميقا بعالم الغيب والشهادة .. وأن هذا العالم كان يملأ تفكيرها ويأخذ عليها مسارب هذا التفكير .. ولعل ايمانها بالهاتف السماوى هو

الذى يكون أزمتها الروحية .. تلك الأزمة التى جعلتها تؤمن بالعمل وأخذ كل شيء مأخذ الجد والنظام .. بل هو الذى جعلها تضحى بحب تريماين .. بل بحبها .. وهو الذى جعل لها تلك الشخصية العارمة التى كانت تخضع جميع من حولها ومن يتصل بها .. ومنهم سدنى ويلمرستون وأغبيـــاء رجال الادارة فى مستشفيات أسكودار .. بل هو الذى جعل المرضى يعتقدون فيها النبوة .. فيحبونها ويهيمون بها .

لكن هـــذا كله يكاد يكون موجودا فى مسرحيات كثيرة واقعية أو رومنسية تشتمل على هذا الجانب التعبيرى .. وربما على أكثر منه .. اننا نجده فى هاملت وكثير غيرها من رومنسيات شيكسبير الاخبارية .. ونجده فى كثير من المسرحيات الشعرية ذات الأجواء المتصلة بما وراء الغيب .

وعلى ذكر تلك الأجـــواء يتبادر الى ذهننا ذكر المذهب الصوفى فى المسرح .. وتتبادر الى ذهننا شخصيات صـــوفية كثيرة يحفل بها تاريخ الصوفية فى الشرق .. وشخصية رابعة العدوية بخاصة .. تلك السيدة التى جعلها حبها لله تغيب عن هذه الحياة الدنيا فلا تتمتع بما فيها من مباهج .. لقد اشتد ايمانها بربها حتى أصبح هذا الايمان حبا ومكاشفة .. ثم اندماجا فى الذات الكلية .. وقعودا عن الجهاد فى سبيل أى

شيء الا التفكر والتأمل فى الله سبحانه .. ومن هنا تختلف رابعة عن فلورنس .. لأن فلورنس التى آمنت بالسماء وبنذائها ووحيها ورؤياها كل هذا الايمان لم تكن سلبية مثل رابعة .. لقد حولت هذا الايمان الى عمل وجهاد وخدمة فى أشرف ميدان .. خدمة الجرحى والمرضى وضحايا الحرب من بنى جلدتها .. وهذا يذكرنا بالمتصوفة الايجابيين من رجال تاريخنا .. وفى مقدمتهم ابن تيمية على سبيل المثال .. ذلك السنى المجاهد الذى لم يكتف بموقف المتفرج حينما غزا التتار الشام .. بل حمل سيفه وقلمه ولسانه ليقف فى صدر الجيش الذى هزم التتار وردهم مدحورين من حيث جاءوا فلم يعودوا لمثلها أبدا .

ومثل ابن تيمية خولة بنت الأزور التى دفعها ايمانها بالله الى امتشاق السيف وخوض المعامع الطاحنة بالرغم من تصوفها .. وهل كانت تفعل هذا لو لم تكن متصوفة لا تغرها هذه الحياة الدنيا ، ولا يغرها بالله الغرور ؟

لذلك نؤثر أن نقف بتلك المسرحية من مسرحيات التراجم التاريخية فى مفترق طرق ثلاثة .. بين المذهب الصوفى ممثلا أولا : فى روح فلورنس ، وثانيا فى روح سدنى .. وثالثا : فى روح اليزابث فى الفصل الرابع حينما غلب عليها تدينها ونسيت حقدها القديم على فلورنس .. ثم بين المذهب التعبيرى

الذى استكمل بعض عناصره فى المسرحية وافتقد فيها الكثير من هذه العناصر ، شكلا وموضوعا .. ثم بين المذهب الواقعى الذى يتجلى فى معظم المراحل وفى معظم الشخصيات بحيث يغرق المذهب التعبيرى فيها ويغطى عليه .

* * *

وقد جاء بناء المسرحية بالضرورة بناء مفككا ، وفيه وثب شديد فى كثير من الأحيان .. ووضع فترات من الزمن تقرب من ربع القرن ومن خمسه حتى بين مشهدى الفصل الواحد عمل مسرحى منتقد .. ولو قد لجأ الكاتب الى جعل مسرحيته حلما يبدأ بفلورنس وهى فى الثمانين أو السابعة والثمانين .. ثم اذا هى ترتد تاريخيا الى مدارج شبابها فكهولتها فشيخوختها فهرمها ، لخفف ذلك من خطف هذه السنين الستين على تلك الصورة القلقة غير المهضومة .. هذا بالاضافة الى ما أتلف به المؤلف مسرحيته .. أو قل تعبيريته وصوفيته على السواء ، بتلك اللهجة التعليمية والأسلوب الوعظى الخطابى الذى تعمد أن يحشو به المسرحية بدروس فى فائدة العمل والنظام والادارة الحازمة وايثار الواجب العام على المصلحة الذاتية ووجوب الاستعداد للعمل الذى يزمعه الفرد قبل التمرس به .. الى آخر هذه الخطب التى حشدها المؤلف على ألسنة الشخصيات جميعا وبلا استثناء وفى غير فن .

ثم لا يفوتنا أن نشير الى بشاعة تصوير مس فلورنس نيتنجيل بتلك الصورة الشنيعة التى تجعلها تحبذ الحرب وتعبد الجيش وتكرس حياتها كلها لاصلاح الأمور فى وزارة الحرب البريطانية لتكون أداة استعمارية مسعورة .. وعدم مبالاة فلورنس بالتصريح بذلك واعلانه والمفاخرة به وهى تجادل اليزابث .. هنا يهبط المؤلف .. ولعله وهم ، لكونه عسكريا هو بالذات ، أن هذا واجب مقدس فى عنقه بوصفه رجلا من رجال الجيش البريطانى .. فههنا فرق ما بين الكاتب الكبير والكاتب العبقرى .. فرق ما بين بيركلى ودرنكووتر مؤلف أبراهام لنكولن.. حيث جعل الحرب شيئا لازما وضرورة من ضرورات الحياة حينما لا يكون عنها غنى للدفاع عن النفس ورد المعتدى الى صوابه .. أما الحرب الاستعمارية فى القرم بحجة الدفاع عن تركيا فجريمة انسانية كانت تخفى وراءها نية اقتسام أملاك الرجل المريض فى الشام ومصر وشمال افريقية .. وقد حدث هذا بالفعل .. وحدث فى حياة فلورنس نيتنجيل نفسها .. بل لقد كانت هى لا تزال القائمة على الشئون الإدارية فى مستشفيات الجيش البريطانى .. ومنها مستشفياته فى مصر حينما اعتدى هذا الجيش الملعون على مصر العرابية وسفكه بالخيانة دم العرابيين ، ثم إذلاله لأعناق المصريين بعد

هذا مدى سبعين عامـا ، ثم اتخاذه مصر قاعدة فيما بعـد للوثوب الى فلسطين والعراق والسودان .

فهل كان نداء السماء الذى طرق أذنى فلورنس واستأذن بالدخول على قلبها آمرا بهذا كله ؟ هذا هو ما أضعف الدافع الفعال فى المسرحية وخذله .

لشد ما ظلم الكاتب فلورنس ذات المصباح .. وما كان أجدر به أن يغير الصورة ويجعلها أكثر انسانية من هـذا .. ليصلح عرض المسرحية خارج بريطانيا على الأقل ..

على أن هذا لا يقلل من قيمة ترجمة المسرحية فى شىء .. لأننا محتاجون الى الاطلاع عـلى جميع التيارات الأدبية ، ولا سيما ما له مساس بتاريخنا .. اننا محتاجون الى معرفة هذه التيارات الأدبية التى تستغلها السياسة فتصورها من وجهة نظر قومية ينافق بها الكاتب أهل بلاده .. وكثيرا ما كان شيكسبير نفسه يقع فى هذا فكان ينصر الجيش الانجليزى .. رافع علم الاثم .. على الجيوش الأجنبية — رافعة أعـلام الحق — كما فعل فى مأساته « الملك لير » .. وان دافع عن نفسه فى هذا الصدد فقال : « ذلك لأنى أكتب مأساة ! » .

* * *

وبعد .. لقد توفى بيركلى فى الرابعة والأربعين من عمره .. ولو أنسأ القدر فى عمره لأمدنا بالروائع بعد الروائع .. ولأعاد

النظر فى هذه المسرحية بالذات فقوى فيها العامل الانسانى حتى يظهره على العامل القومى ، ولتكون بذلك قطعة عالمية انسانية طيبة .. انه لم يشر قط الى أن فلورنس نيتنجيل كانت تحفل بجرحى الأعداء كما يوجب دستور الصليب الأحمر الذى كانت هى السبب فى انشائه .. بل لم يشر قط الى أنها كانت تحفل بجرحى الحلفاء من فرنسيين وأتراك وسردينيين .. ولا نقول بالجرحى المصريين .. فكيف نسى هذا ؟ وهل كان حتما أن يصبغ المسرحية بهذا اللون الأحمر الانجليزى الفاقع ؟ لهذا وصف ألارديس نيكول الكثير من مسرحياته بأنها تفتقر الى العاطفة القوية الصادقة وان لم تفتقر الى القوة والعظمة والرفعة .. على أن لبيركلى من المسرحيات ما يجعله أهلا للخلود ، وما كنا نؤثر أن نبدأ بترجمته [1] .

درينى خشبة

تنبيه :

وقع فى مقدمة العدد ٤٤ من روائع المسرح سهو فى ص ٣٦ اذ وردت كلمة : « القلق » مكان « النزق » فينبه .

---

(١) من أشهر مسرحيات بيركلى :
مسرحية الحالمة The Quest of Elizabeth ثم Eight o' Clock ثم The Mango Island وظهرت كلها سنة ١٩٢٦ وأحسن مسرحياته كلها هى مسرحية The White Chateau (١٩٢٧) التى يظهر فيها تأثيره بالكاتب الكبير چيمس بارى ... ومن مسرحياته أيضا : Machines (١٩٢٧) ثم ذات المصباح التى ظهرت سنة ١٩٢٩ ونجحت نجاحا كبيرا (د . خ)

أشخاص المسرحية

وليم نيتنجيل : (سليل أحد البيوتات العريقة)
مسز نيتنجيل : زوجته ٠
مس فلورنس نيتنجيل: ابنتهما ٠
لورد پلمرستون : وزير ثم رئيس وزراء بانجلترا ٠
سـدنى هربرت : عضو برلمان ثم وزير للحربية ٠
اليزابث هربرت : زوجته ٠
هنرى تريماين : شاب ثرى مولع بحب فلورنس ويريد آن يتزوجها ٠
سلينا بريس بردج : صديق فلورنس ٠
دكتور سمث : مدير الخدمات الطبية بالجيش ٠
دكتور كمنج : مفتش عام المستشفيات ٠
دكتور سذرلاند : رئيس اللجنة الصحية ٠
جراح بالجيش :
بامفـورد : ضابط الامدادات بالجيش ٠
مس بيتس : ممرضة ٠
مسـز وليمز : ممرضة
چـونز : آونباشى بالجيش ٠
مكدونالد : محرر بصحيفة التيمز (بالقرم) ٠
صـحفى :
مندوب جريدة التيمز لحفـل تكريم مس فلورنس اللورد عمدة لندن
مندوب الصـلب الأحمر الأمريكى للحفل ٠
مندوب من السلك السياسى الألمانى للحفل ٠
كبير الياوران للحفل ٠
أمين التشريفات للحفل ٠
بعض المحاربين القدامى بالقرم للحفل٠

الفصل الأول

المنظـــر الأول

شرفة فسيحة بحديقة بيت « وليم نيتنجيل » الرئيسى فى ريف « امبلى پارك بهامپشير » — وهى تطل على رقعة متسعة من الأرض ذات مماش مرصوفة ، وأحواض للزهور ، ولهـــا سلم عريض الدرج يصل الى مروج تكسوها الحشائش • وفى مقدمة الحديقة نافورة ينساب منها الماء •

والوقت صيف فى أخريات الشق الأول من القرن التاسع عشر • وكان يجلس فى الشرفة فى أصـــيل يوم من أيام شهر أغسطس وقد أرسلت الشمس أشعتها الذهبية ، جماعة قليلة من بينهم « لورد پلمرستون » وزير خارجية انجـــلترا ، ولم يكن لجاريه أحد من رجالات أوروبا فى كسب احترام النـــاس ، وبجواره مستر « وليم نيتنجيل » رب البيت ، ثم زوجته «فانى» ، وهى تكبره سنا ، وكانت أساريرها تدل على العنف ، وقد جلست على مقعد مستقيم الظهر ، وعلى ركبتيها سلة بها مستلزمات أشغال الابرة •

وكان رابع الجماعة « ســـدنى هربرت » ولم يكن قد بلغ الأربعين ، وهو عضو بالبرلمان ، وصار فيما بعـــد وزيرا للحرب بوزارة سير « روبرت پيل » •

وكان لورد « پلمرستون » ممسكا بكتاب فى يده ، وقد دل مظهر جلسائه على أنه أثار موضوعا للنقاش •

نيتنجيل : ولكنه يبالغ كثيرا فى أسلوبه .

هربرت : أظنه كذلك .

پلمرستون : هذا شأنه فى كل ما يقول ، وأكثر قوله هراء ، ولو أنه يأتى فى بعضه أحيانا بما هو جدير بالاعجاب ، لما يدل عليه من عمق التفكير .

مسز نيتنجيل: وما اسم الكتاب يا لورد پلمرستون ؟

پلمرستون : « الماضى والحاضر » .

مسز نيتنجيل: حقا !

پلمرستون : وهو من تأليف الكاتب الاسكتلندى «كارليل» .

مسز نيتنجيل: الحق يقال انى لم أسمع عنه من قبل .

نيتنجيل : عجبا يا « فانى » ، لقد سمع به جميع الناس ، وهو مفكر ذائع الصيت .

مسز نيتنجيل: وفيم يفكر ؟

هربرت : فى أن واجب الناس جميعا أن يعملوا .

مسز نيتنجيل: هذا سخف ، نعم يجب على الفقراء أن يعملوا والا هلكوا . فالانسان ليس فى حاجة الى العمل ما دام لديه مال ، وما الذى يوجب العمل ؟

پلمرستون : يستزيد المرء من المال .

مسز نيتنجيل: وهل تفعل هذا أنت ؟

بلمرستون : (مبتسما) لا ، اذ لست ممن يهتمون بالمال كثيرا ، ولكنى أعمل لأني أحب العمل .

مسز نيتنجيل: ان كان هذا هو الدافع اليه فلا تعده عملا ، على أني أراك غير منصف لنفسك ، لأنك تخدم وطنك ، لشعورك يا لورد بالمرستون بأن هذا من واجبك .

بلمرستون : انه شعورى بالواجب نحو نفسى ، وأخشى أن أقول انى أعمل حبا للسيطرة ولكرهى للكسل .

مسز نيتنجيل: هذا جميل ، ولو كان العمل هو مجرد أداء المرء لما يجب ، فانى لا أجد مبررا لما ناله مؤلف هذا الكتاب من شهرة عظيمة بوصفه شخصا مفكرا .

هربرت : ولكن ليس هذا هو ما يرمى اليه يا مسز نيتنجيل، لأن تفكيره يتجه الى أن من واجب كل انسان أن يؤدى عملا مفيدا ، كما نرى أن للعمل روحا.

مسز نيتنجيل: ما من أحد الا وله روح يا مستر هربرت ، وعلى الأقل هذا ما أرجو أن يكون ، وأغلب ظنى أن هذا الكتاب غير عملى وبعيد عن جادة الصواب. ولكن كيف دخل بيتنا يا وليم ؟

نيتنجيل : أظنه كتاب فلورنس .

مسز نيتنجيل: كان يجدر بى أن أعلم هذا دون أن أسألك ، لأن الصغيرة المسكينة ليست عملية بحال ، هل تسمح لى برؤيته يا لورد پلمرستون ؟

پلمرستون : دون شك ، وستجدين فيه أبحاثا كثيرة تدل على مهارة فائقة ، وموضوعاته التى تناولت انجلترا فى العصور الوسطى فى غاية السبك ، ولكنى أراه وقد تعرض للأحوال فى هذه الأيام ، يشتط بقلمه حتى يصل به الى الكثير من السخافات .

مسز نيتنجيل: ان أردت أن تعرف ماذا يهدف اليه هذا الرجل ، وجدته سخفا بحتا ، ويخيّل الىّ أن الناس جميعا مثلى لا يفهمون نصف ما يقول ، ويخيل الىّ كذلك أنه يظن أن من العار أن يكون المرء غزالا ، وأن من امتلك مصنعا أو طاحونا فهو آثم . وأرى ألا يسمح بنشر مثل هذا الكتاب ، لأنه ولا شك يحرض على قيام الثورات ويسمّم عقول الصغار ، لماذا لا تمنع الحكومة تداوله يا لورد بالمرستون ؟

پلمرستون : لاشك انك تعلمين أن أكثر ما تعنى به الحكومة

هو التقليل من الفوارق الكبيرة بين الطبقات لازيادتها ، وعلاوة على ذلك ، فليس لها أن تقف فى سبيل حرية ابداء الرأى .

مسز نيتنجيل: ان الأوغاد والخونة يضللون كثيرا من التعساء حتى يبعدوهم عن الطـريق السـوى ، وأولى بهؤلاء أن يزج بهم فى السجون .

نيتنجيل : ليس هذا فى الامكان يا « فانى » لأننا فى القرن التاسع عشر .

(وتلحق بالجماعة فتاة جميلة سوداء الشعر فى مستهل السنوات التى بعد العشرين ، انها « اليزابث هربرت » وقـد تزوجت « سدنى » منذ عهد قريب) .

بلمرستون : (مخاطبا مسز نيتنجيل وهو يبتسم) : لقـد كانوا يسمون والدك فى مجلس العموم «بسميث قاتل الملوك » ، ولم تر عينى رجلا أعظم منه فى احداث الانقلابات .

مسز نيتنجيل: لم يكن هذا بطبيعة الحال الا لتمسكه بالمبادىء، ولقد كان رجلا ذا آراء ، شأنه فى ذلك شأن أخى « سام » وكان أعز الناس وأكثرهم حنانا ، ولكن لو كان قـدّر لك أن تعيش فى منزله

لأدركت ما للمبادىء والأفكار من الاطاحة بعقول الناس .

هربرت : ولكن لا مراء أن الأفكار هى أساس التقدم .

مسز نيتنجيل: ولكنها لا تتمشى مع الحياة العملية ، ولقد كانت الآراء فى منزل أبى تحتل مكان المناضد والمقاعد، وكنت لا تدرى متى تثبت على الفكرة ومتى تنهار من تحتك ، وانى لأحمد الله اذ لم يجعل « وليم » رجل آراء .

بلمرستون : سوف تتجدد تلك الظاهرة فى الأحفاد ، وكم ستلاقين بسببها من متاعب .

مسز نيتنجيل: فى أحفادنا ؟ ليته يكون هـذا فحسب ، ولكن الأدهى والأمر ، أنى أراها قد تجددت عنـد فلورنس .

هربرت : آه ! فلورنس ! ولـكن فلورنس تختلف عن الجميع ، فهى ...

اليزابيث : هى آدهش واحدة صادفت « سدنى » .

نيتنجيل : هذا اذا استثنيت نفسك بطبيعة الحال يا مسز هربرت ... بلا شك .

هربرت : ولكنى لا أمارى اذا قلت ان « مس نيتنجيل » عجيبة ، لما لها من قدرة وبصيرة .

مسز نيتنجيل: شكرا يا مستر هربرت ، وتلك هى الكلمة التى أريدها « عجيبة » وانها لكذلك بالضبط ، انها « عجيبة » فهى فتاة يهيم بها نصف رجال لندن ، ويودون الاقتران بها ، وهى تقيم فى منزل جميل ، ولها والدان لا ريب أنهما يوصفان بحسن الادراك ، وماذا تريد أن تعمل ؟ هل ترغب أن تصبح دوقة ؟ لا ، وهل تريد أن تكون ربة بيت وتستقبل الساسة ؟ لا ، هل تريد أن تكون ولو فنانة ، مع تأكدى بأنها قادرة على تعلم الرسم واتقانه ، أو العزف على البيانو ، أو غير هذا مما يعتبر من مقومات النساء ، انها لا تعير كل هذا أى انتباه . انها تود أن تلتحق بمستشفى « سلسبرى » لتكون ممرضة عادية ، ولذا أراك على حق يا مستر هربرت عندما تقول انها « عجيبة » .

هربرت : هذا حسن ، ولكنها لا تريد البقاء هناك ، وانما تريد المران .

مسز نيتنجيل: وما هو المران ؟ كى ترى أشياء لا تليق بالسيدات وتختلط بحثالة الناس ؟ انك لا تدرى ماذا يحدث بالمستشفيات ، فالمرضات دائما مخمورات ، وهذا قليل من كثير مما يحدث هناك .

هربرت : من الصعب تصديق ذلك ..

بلمرستون : وأنا أعتقد أن هذا هو عين الحق ، ولو أن واحدة مثل « مس نيتنجيل » أخذت على عاتقها القيام بهذا الأمر ، وتعهدته من جميع نواحيه ، ألا يكون عملها هذا بداية لأمور أفضل ؟

نيتنجيل : وهذا ما أقوله دائما يا عزيزى ، وهى تحس دائما أنها تسمع هاتفا يدفع بها الى هذا الاتجاه.

مسز نيتنجيل: هاتفة !! كيف تقول مثل هذا الهراء يا عزيزى ؟ ان الهاتف لا يكون الا للقديسات ، ولا يكون للشابات الغبيات ذوات الأفكار العجيبة .

هربرت : انها تبدو كالقديسات .

اليزابيث : (همسا) : وهى فى زيها مثلهن .. أرانى قد أخطأت فى الكلام مرة أخرى .

مسز نيتنجيل: (مكتئبة) لا يا عزيزتى ولكنك لسوء الحظ

قلت الصدق ، وانك لم تنطقى الا حقا ؛ لأنى عجزت أن أقنع هذه الصغيرة كى تعنى بزيها ، كما أنها لا تهتم بالاختلاط بالناس ، وتراه يضايقها ، وما من أحد الا ويظن أن الحب أضناها الا أنها فى الواقع لا تطيق رؤية الرجال.

اليزابيث : (وقد خجلت قليلا من ملاحظتها الأخيرة) : ولكن هذا جميل منها حقا يا مسز نيتنجيل .

مسز نيتنجيل: انك تسمين هذا جميلا ، ولكنى أراه حماقة .

هربرت : انى أقول انه جميل ، وانه رائع ، وأنا أثق فى « مس نيتنجيل » وأظن أنها ستقوم بعمل عظيم ، عمل لم يقم به أحد غيرها ..

(ويقطع حديثه ظهور ثلاثة على السلم المؤدى الى الجانب البعيد بالشرفة)

مسز نيتنجيل: انك تتحمس لابنتى بشكل غريب .

نيتنجيل : صه يا « فانى » ها هى ذى قد أقبلت .

(وقف على السلم رجل وفتاتان ، وكان الرجل معتدل القوام ، وله هامة جميلة وشخصية مهيبة ، وتدل تقاسيم وجهه على القوة ، وكان يدعى « هنرى تريمانى وهو يقرب من الثانية والثلاثين ، وكانت كبرى

الفتـــاتين تدعى سلينـــا بريس بردج » والأخرى « فلورنس نيتنجيل » صـــغرى بنات أسرة نيتنجيل ، وقـد قاربت الآن الثامنة والعشرين ، وهى طويلة ممشـوقة القوام ، رشيقة ذات شعر بنى غير غزير ، وهى مليحة الأديم ، وعيناها رماديتـــان واسعتان ، وأما وجهها فلم يكن جميـــلا بالمعنى المألوف ، ولكن نارا خفية أضفت عليه نورا . وكانت الفتاتان تقفان معا ، بينما كان « تريماين » يبتعد عنهما قليلا ويبدو عليه الارتباك) .

مسز نيتنجيل: (لا ارادیا وقد أدركت الموقف) : أليس هذا مما يضايق كثيرا ؟ سوف يتكرر ما حدث مع « شكلفورد » يا عزيزى ، لقد طلب منى ذلك الفتى المسكين أن أهيىء له فرصـــة التقـــدم للخطبة ، ولقـــد أرسلتهما للرياضة معـــا ، فدبرت هى بطريقة ما ، أن تصحب معها « سلينا بريس بردج » — والله يعلم لماذا تريد هذه أن تتدخل بينهما ، مع أنى أراها حريصة على أن يكون لها زوج ، وسيكون من نتائج ذلك أن ابنتى لن تتزوج أبدا .

(تريماين يستدير ويدخل البيت بعـــد انحناءة تقليدية لفورنس) .

انظر ، هذا هو نفس الشيء الذى فعله لورد « شكلفورد » منذ سنتين عندما رفضته — الحق يا عزيزى وليم ، ان ابنتك متعبة .

پلمرستون : هيا ، هيا ، أراك تنسبين أخطاء الأبناء الى الآباء .

نيتنجيل : أنت تعلمين يا حبيبتى « فانى » أنها ابنتك كما هى ابنتى

(فلورنس و « سكينا » تنسحبان بهدوء ، وتلاحظهما مسز نيتنجيل فتنادى قائلة : ياعزيزتى فلورنس !)

فلورنس : نعم يا أمى الحبيبة .

مسز نيتنجيل: هل كانت النزهة ممتعة ؟

فلورنس : لقد كانت جميلة حقا ، ولقد سرنا أميالا .

مسز نيتنجيل: ما كنت أعلم أن « سلينا » ستذهب معك .

فلورنس : ولم تكن هى تعلم أيضا ، ولكنى أنا التى طلبت منها ذلك .

مسز نيتنجيل: ما كان يجب يا عزيزتى « سلينا » أن تجعليها تتعبك .

سلينا : ولكنى أحب هذا يا مسز نيتنجيل .

مسز نيتنجيل: نعم يبدو ذلك ... ، ولكن رغم هذا أرى أنك ما كنت لتجعليها تتعبك (واستمرت تسأل فلورنس) .

وأين ذهبتم يا حبيبتى ؟ هل ذهبتم الى الغابة ؟

فلورنس : لا ، ولكننا ذهبنا لزيارة مرضاى .

مسز نيتنجيل: كم كنت أود يا عزيزتى ألا تستعملى لغة العامة من الناس ، ولست أفهم ماذا تقصدين .

فلورنس : أقصد مرضاى يا أمى العزيزة ، انى أقوم بتمريضهم .

مسز نيتنجيل: ابنتى العزيزة ، أرى أن لك خيالات عجيبة ، ولكن لا ضير .

پلمرستون : أود لو قلت لى يا « مس » من يكون هؤلاء المرضى .

فلورنس : نعم ، هناك « مرجيرى » العجوز والدة وكيل مكتب البريد ، وهى تعانى من الربو ، وتمريضها يضنينى أكثر مما لو كنت أقوم بتمريض عنبر ملىء بالمرضى ، وهناك غيرها مزارع يشكو جرحا كبيرا ، لقد جرح نفسه

بالمنجل ، ويجب أن أنظفه وأضمده كل يوم ، لأنه جرح غائر حتى العظم .

مسز نيتنجيل: يا عزيزتى فلورنس ، أنت لست فى حـانوت قصاب .

فلورنس : وهناك رضيع فقد أمه ، ويحـاول والده أن يطعمه لحما فى غيابى ، وامرأة عجوز تشكو من الروماتزم ، وهى فى حاجة لتـدليك كتفها ، وهناك « داندى » ويعلم والدى أمره .

نيتنجيل : انه كلب الراعى ، لقد كسر الفخ له ساقا أمامية، وكان يجب قتل هذا المسكين .

فلورنس : ولماذا يجب قتله ؟ فالعظم سليم كعظم الآدمى ، وهو محتاج الى العناية فقط .

مسز نيتنجيل: نعم يا عزيزتى ، ولكن لا تعارضى والدك .

فلورنس : لا يا أمى ، وكونه والدى يحتم عدم معارضته ؟

اليزابيث : أرجو أن تصحبينى معـك يا فلورنس لأرى مرضاك .

فلورنس : بكل تأكيـد .

اليزابيث : وكذلك « سدنى » لأن هذا يهمه .

فلورنس : وهل يهمك هذا ؟

هربرت : يهمنى كل عمل تقومين به يا مس نيتنجيل .

فلورنس : حسنا ، ولنذهب جميعنا باكر صباحا .

هربرت : لى فكرة ، وسأتحدث معك بشأنها ، أريد أن أنشىء مكانا لنقاهة المرضى ، اذ لا وجود لشىء كهذا ، أريد دارا لنقاهة المستأجرين عندى ، ولى قطعة من الأرض قريبة من البحر .. واليزابث تعلم كل شىء عن هذا .

اليزابيث : انه مشروع جليل ، وسوف نمدهم جميعا بكل ما يحتاجون اليه .

مسز نيتنجيل: انه لشىء سار حقا .. وبودى لو نجد من يمدنا — نحن — بكل ما نحتاج اليه يا عزيزتى فلورنس . ماذا عملت لتريماين المسكين بعد أن أفسدت شهيته بالحديث عن مرضاك ؟

فلورنس : لست أدرى ، وأين ذهب يا « سلينا » ؟

سلينا : قال انه سيكتب بعض الرسائل .

مسز نيتنجيل: انه ضيف والدك يا عزيزتى كما تعلمين ، وكان المفروض أنك ترحبين به وتكرمين ضيافته .

فلورنس : أظن أنى قمت بهذا الواجب على أكمل وجه حتى انه ظن أنى كنت أمزح ولست جادة .

نيتنجيل : ان هذا لا يدهشنى أبدا ، وأظن أن الأحرى بى أن أذهب لأقدم اليه شيئا من المنعشات .

مسز نيتنجيل: وأظن أننا جميعا فى حاجة الى قليل من المنعشات، وهذا وقت تناول الشاى .

(يتحرك الجميع ـ وتقف كل من سلينا ، والبزابث) .

بلمرستون : (يقف) : لست أريد شيئا وسأبقى هنا اذا لم يكن هناك ما يمنع .

(ينتظر « نيتنجيل » ويتناول الحقيبة من زوجته ، وأما هربرت وبلمرستون فيتبادلان بعض الحديث قبل خروج هربرت مع البزابث ، وتدخل مسز نيتنجيل فى مقدمتهم بينما تبقى فلورنس جالسة) .

فلورنس : لقد أصبحت من المنبوذات ! هل لديك مانع يا لورد بلمرستون من أن أجلس معك ؟

بلمرستون : انه شرف فوق ما أستحق .

فلورنس : حبذا لو تكرمت باسداء النصح ؟

بلمرستون : وهذا يفوق الاطراء ، وفيم النصيحة ؟

فلورنس : فى شخصى .

بلمرستون : اننى طوع أمرك .

فلورنس : أليس للنساء أى قدرة على القيام بعمل نافع فى هذه الحياة ؟

بلمرستون : انهن يقمن بنصيبهن فى ضمان وجود البشرية ، ويتوقف اعتبار كون هذا العمل نافعا أو غير نافع على ميول السائل ووجهة نظره .

فلورنس : ولكن هل يتحتم على النساء أن يقيد نشاطهن فلا يكون الا فى ميدان واحد ؟

بلمرستون : أمامهن بيوتهن .

فلورنس : نعم ، هذا ان أردن أن يكون لهن بيوت ، ولكن لماذا يتحتم على المرأة اذا ما رغبت عن الزواج أن تخدم فى بيت أمها وتستقبل الأضياف أو تعيش عيشة الكسالى وتضيع حياتها سدى؟

بلمرستون : ولكن من المؤكد وجود أشياء أخرى غير ما تذكرين .

فلورنس : قد تعمل كمربية للأطفال فى بعض البيوتات ، ولكن لماذا لا يكون لها منهاج مستقل تسلكه فى حياتها ، وعمل نافع تقوم به .

بلمرستون : وهل هناك أمثلة لما تعنين ؟

فلورنس : أى شىء ، فهناك القانون والسياسة ، وكذلك

الأعمال التجارية،أو كما فى حالتى ، التمريض.

بلمرستون : ولم لا ؟

فلورنس : وهل أنت جاد ولا تظن أن هذه بلاهة منى ، أو أن من الخطأ القيام به ، أو أنه غير عملى ؟

بلمرستون : لست أدرى من ناحية اشتغال المرأة بالقانون ، ولا بالسياسة ، (مبتسما) ولكنى أظن أن التمريض أمنية جميلة .

فلورنس : (وقد فاضت سرورا) : حقا !!

بلمرستون : هذا لو أنك أخذت الأمر بمحمل الجد ، ثم هناك شيئان جديران بأن تتذكريهما ، وهما بسيطان جدا ، وهذا ما يجعلهما ينسيان عادة . يجب أولا ان أردت نوال ما ترجين أن تعدى نفسك له الى أن يحين الوقت ، والواجب ثانيا أن تكونى مستعدة لاغتنام الفرصة ، اذا سنحت وأعنى بكلمة مستعدة ، أن تكونى أهلت نفسك بكل ما هو ضرورى لعملك ، لأن التحمس بغير استعداد غير مجد. وان لم تكونى أعددت نفسك ، فالأولى أن تجعلى الفرصة تفلت منك ثم تنتظرى سنوح غيرها ، وها أنا ذا

مثلا قد انتظرت عشرين عاما وأنا أعمل بالادارة الحربيـة .

فلورنس : ولم هـذا ؟

پلمرستون : لأنى لم أكن دربت ، ولقد عرض علىّ «سبنسر پرسيڤال» أن أكون وزيرا للخزانة قبل موقعة وترلو ، أو حتى قبل موقعة استرلتز ، ويرجع هذا الى زمن بعيد ، يقرب من الأربعين عاما ، لقد كانت فرصة ذهبية ، أليس كذلك ؟

فلورنس : مدهشة ، وكم كان عمـرك وقتئـذ ، خمس وعشرون سنة ؟؟

پلمرستون : يقرب من هذا .

فلورنس : ولماذا لم تغتنمها لو أنك فعلت هذا لكنت قد شققت طريقك الى القمة .

پلمرستون : لم أفعله من أجل هذا الذي ذكرته يا فلورنس ، اذ ربما كان طريقى الى القمة ، وربما كان الى حيث يكون القضـاء الأخـير ، ذلك لأنى لم أكن دربت بعد .

فلورنس : ولكن كان لابد أن يكون معك من يعاونك فى الوزارة .

بلمرستون : لم يكن هؤلاء ليتكلموا عوضا عنى فى البرلمان، وما من أحد غير «فكس» أو «پت» الا وكانت أحاديثه بالبرلمان فى بادىء الأمر سقيمة .

ولقد شغلت مركزا صغيرا بوزارة الحربية ومكثت فيه ، وعرضوا علىّ كل الأنواع المغرية، كأن أكون حاكما عاما للهند ، أو نائبا للملك فى ايرلندة ، ولقد حاول ولى العهد أن يزين لى الذهاب الى چاميكا ، وبين لى أن فى ذهابى تحقيق آمالى ، ولكن هذا لم يكن ليغير من موقفى ، ولذا بقيت كما أنا حتى أتقنت الشئون البرلمانية ، كما أصبحت ملما بالأسرار الحكومية ، وبعدها أدركت ، وكنت محقا فيما رأيت ، أن أية حكومة لن تقف كثيرا على قدميها بغيرى ، وهذا هو الوضع اليوم . المران ، انه المران ، وهذا ما يجب أن تفعليه الآن .

فلورنس : انى أعلم هذا ، وهو ما أريد أن أفعله ، ولقد أردت أن ألتحق بمستشفى « سلسبرى » ولكنهم لم يسمحوا لى ، والتدريب على التمريض لا يكون الا فى المستشفيات . اننى

أتخلص من القيود أحيانا ، فلما كنا فى باريس ، وكان المفروض أن نجـوب متحف اللوفر ، كنت تراني عادة وقد ذهبت الى مستشفيات « أخوات الاحسان » ، ولقد تمكنت فى العام الماضى وأنا بايطاليا أن أقضى وقتا قصيرا وأنا أعمل فى مصحة أحد الأديرة ، كما أمضيت ما يقرب من الشهر فى « قيصر ورث » بألمانيا .

بلمرستون : ألمانيا ؟ ذلك المكان الذى يقع على نهر الرين ؟

فلورنس : نعم ، وهناك تم مشروع مجيد ، انه عمل جدير بالاعجاب ولقد انبثقت فكرته من كوخ بالحديقة الخلفية بمنزل أحد القساوسة ، ونما المشروع وترعرع ، الى أن أصبح مؤسسة تضم مئات الأسرة ، وكان كل هذا لأن الرجل كان يعمل وهو مؤمن بفكرته ، فلم يقل « وهل يوافق أهل بيتى على هذا ؟ أو « هل يليق بقس أن يقوم بمثل هذا العمل ؟ » أو « ألم يكن من الأحرى أن أقوم بالوعظ بدلا من اقامة هـذا المبنى بسواعدى ؟ » ولكنه كان موقنا بما يفعل ، ولذا قام بتنفيذه .

ولقد حاول الجميع أن يثبطوا من همته ، وأنا أعلم تماما ما قالوه ، اذ قيل لى مثله :

قال له البعض : « انك تتوقد ذكاء ، وفى مقدورك اذا اخترت أن تصبح قوة لها خطرها فى المجتمع .. انك تضيع وقتك هباء » .

وقال آخر : « يجب ألا تعمل هذا فهو لا يليق برجل الدين ولا يقوم بالنجارة الا العامة الأدنياء » .

وقال آخر : « ليس هذا بالشىء العملى يا عزيزى » — ولكنه لم يثر كل هذا انتباها ، ودبّر المال بعد جهد جهيد واشترى الأخشاب ، ثم أقام الكوخ وأدخل فيه رجلا رآه فى حاجة الى الرعاية . وانظر الآن ما صار عليه المكان ، ذلك لأنه كان ذا عزم وبصيرة .

بلمرستون : حسنا ، والعزيمة لا تنقصك .

فلورنس : وهل تظن هذا ؟

بلمرستون : وما حال الوحى ؟ الرؤيا .. ؟

فلورنس : منذ عشر سنوات .. ولكن لا ، وأظن الأفضل الا أقول لك شيئا .

ستون : ولم لا ؟

س : قد تفسرها بما لا يرضى، وربما تقابلها بالسخرية منى .

پلمرستون : لن أفعل هذا قطعا .

فلورنس : منذ عشر سنوات ، كنت هنا فى هـذه الشرفة ليلا ، وكان الظلام حالكا ، وفجأة تغير شكلها، وخيّل لى أنها صارت أكثر اتساعا ، وكأنما قد بعدت ، ورأيت النور ينبعث من كل النوافذ ، ورأيت فوجا من الناس وهم فى هرج ومرج ، وعلى الأبواب الكبيرة يتزاحمـون ، وكانوا يحملون الى داخل المنزل أشياء كأنها الحشايا (المراتب) ، وكان يسير بين الجموع شخص يحمل مصباحا ، وفجأة شعرت أنى أنا حاملة المصباح ، وأن المكان فى جهة بعيدة جدا ، وأنه مستشفى عظيم ، ثم سمعت صوتا ..

پلمرستون : وهل صدر الصوت من بين الناس ؟

فلورنس : لا ، لقد كان صادرا من قرارة نفسى ، ولقـد سمعته يدوى ، وأدركته بعقلى ، ولقد خاطبنى وقال لى : « استعدى » .

بلمرستون : وهل أخبرت أحدا بذلك ؟

فلورنس : حاولت أن أخبر والدى بطبيعة الحال ، وظن أن هذا مستحيل فنادى والدتى ..

بلمرستون : وماذا حدث ؟

فلورنس : أعطيانى جرعة دواء !

بلمرستون : يبدو لى أن الأمر أشبه بمزيج من التخمة والوحى ، أليس كذلك ؟

فلورنس : لقد وعدت الا تسخر منى .

بلمرستون : لست أسخر ، ولكنى أحاول أن أخفى عن نفسى أنك أثرت علىّ كثيرا .

فلورنس : وما معنى كل هذا يا لورد بلمرستون ؟

بلمرستون : وماذا تظنين أنت ؟

فلورنس : لست أدرى ، ولم أجد تفسيرا لهذا ، وكنت أظن أحيانا أن النعاس غلبنى وحلمت ، وأعجب أحيانا وأقول لعل هذا هو « النداء » ينادينى لأقوم بما لا يقوى عليه أحد .

بلمرستون : هذا ما يجب أن تؤمن به ، فاتبعيه ، ولكن لا تنسى أنه مهما بلغ حسن المقصد فلن يعوض عن قلة المعرفة شيئا ، وأن اغتنام الفرصة

لاشك نصف المعركة ، ولكن القدرة على القيام بأعباء العمل هى النصف الآخر .

فلورنس : انك تمدنى بشىء لم أعهده من أحد قط ، انه التشجيع ، وكم يشعر الانسان بالوحـدة ، وتضيق به السبل ، اذا لم يجد من يفهمه .

(ويمد بلمرستون يده اليها فتقبل عليه ، وتظهر مسـز نيتنجيل بالشرفة ، وعلى وجهها ابتسامة رقيقة وهى تنظر اليهما) .

بلمرستون : (يمسكها بيدها) : سيرى وتعلمى ، سيرى وتعلمى .

فلورنس : سأفعل هذا ، وسأكون كالرجال ، وأتنحى عن صفات الأطفال .

مسز نيتنجيل: عزيزتى فلورنس ، لا تتعبى لورد «بلمرستون» بحماسك .

فلورنس : (تتراجع الى الوراء وقد تخلت عن الامساك بيده) سمعا يا والدتى .

بلمرستون : لقد كنت على النقيض شغوفا بحديثها .

مسز نيتنجيل: ولا شك كان عنصر التسلية ، لأن ابنتى العزيزة

لها قدرة كبيرة على المؤانسة ، والآن هيا ندخل يا لورد پلمرستون ، وسنلعب الورق .

پلمرستون : نعم ، نعم ، سألعب ، سألعب .

(يدخل المنزل مع مضيفته) .

فلورنس : (تلاحظهما وهما يدخلان) : أنا على حق ، أنا على حق ، ولابد أن أكون على حق ، وانى أرى شيئا .. انه لعمل عظيم .. لو منحنى الله القـوة ..

(ويظهر « سدنى هربرت » وهى واقفة ، ويقبل نحوها) .

هربرت : هل تسمحين بمجيئى لأتحدث معك ؟

فلورنس : نعم ، كنت أظن أنك تتناول الشاى معهم .

هربرت : لقد هربت وفكرت أن أتحدث معك عن أمانيك العظيمة .

فلورنس : أى نعم .

هربرت : وآمل ألا تتراجعى فيها ولا تهنى ، وانى واثق أن الحق فى جانبك ، وبودى أن أساعدك .. لو تسمحين لى ..

فلورنس : ألا ترى أن تتجول فى الحديقة ؟

(يخرجان وتدخل اليزابث هربرت بعد خروجهما وتنظر حواليها بحثا عن سدنى هربرت ، وتغيب الابتسامة عن ثغرها وهى تقطع الشرفة ، وتراهما وهما يتواريان عن الأنظار) .

تنزل الستار

المنظر الثـــانى

(الشرفة نفسها ، وضوء القمر يسطع ، وترى فلورنس وهى واقفة وحدها بجوار النافورة ، وكاد حـــديثها الأخير مع لورد بلمرستون أن يصل بها الى اتخاذ قرار عظيم ، ولكن كان لايزال أمامها نضال ، بدأت أولى جولاته فى تلك الآونة داخل سريرتها ، وتبودلت الطلقات فى مخيلتها ، وتسمع وهى تنطق بما يجول فى خاطرها بهمس مسموع عندما وجدت نفســـها بمفردها ، والفرصة سانحة لصفاء الذهن والقضـــاء على ما به من أفكار متضاربة) .

فلورنس : لماذا كانت أرواحنـــا يا الهى عرضـــة لتضارب الأهواء فلا تستقر على حال ؟ ولماذا لا تكون أغراضنا فى اتجاه مستقيم واحد كما تفعل هذه النافورة ؟ اذ نرى ماءها وهو ينساب عاليا كأنه سلسبيل فضى ، ثم نراه يعود فى رقة وفى هيئة قوس من النور ، أما نحن فلا نستجيب لقوة واحدة تصوغ حياتنا ،

أواه ! ماذا أنا فاعلة بحياتى ؟ وهل حياتى ذات بال ؟

وهل اذا حاولت القيام بعمل عظيم ونبيل يعود على البشرية بالخير ، أو اذا تركت النضال واستسلمت للحياة العادية وما بها من قيود ، كانت النتيجة فى كلا الحالين سواء ؟

وهل أنا عالمة بما أريد ؟

لقد شعرت انى وقت الأصيل وكأنى واثقة مما أريد ، ولكنى هنا وفى هذا الضوء الهادىء ، أجد « الرؤيا » قد احتجبت ، وأرانى أسمع صوتا كنت أظنه قد تلاشى منذ أمد ، أسمعه وهو يغنى على أنغام الماء وهو يتساقط :

انه يغنى أغنية نعيم الحب ، أغنية راحة القلب فى ظل قوة الزوج أغنية الفرحة التى تتجلى عند ابتسامة الرضيع فى المهد .

أواه ! انى أومن الآن بهذا الصوت !!.. ولكن لا ، لا ! يجب أن أكون قوية ، كيف يقارن حب الرجل بخدمة الرب ؟

ولكن الزواج شىء قدسى .. أواه ، انها النافورة وقد سحرها جمال الليل ، وأقاصيص المحب وما فيها من مسرات ، يجب أن أقوى ..

(يسمع صوت « تريماين » وهو ينادى « مس فلورنس » ثم يرى بعدها وهو يدخل الحديقة) .

تريماين : وهل أنت بمفردك؟ أحسب أنى سمعت أصواتا.

فلورنس : لقد سمعت صوتى ، كنت أخاطب النافورة ، انها صديق قديم أقص عليه كل أسرارى .

تريماين : وهل تسمح لى كذلك بأن أفضى اليها بأسرارى؟

فلورنس : وكن واثقا على الأقل بأنها لن تبوح بها .

تريماين : اذن سألجأ اليها وأسألها النصيحة ، وسأخبرها أن هناك واحدة ، وانها نبيلة وذات أفكار سامية ، كما انها جميلة بطبيعتها ، ولذا أتهيب الاقتراب منها .

فلورنس : وماذا تعرف عن طبيعتها ؟

تريماين : انها تشع من عينيها ، وتتوهج فى محياها كما تتردد فى نبرات صوتها .

فلورنس : تقول النافورة ان العيون تخدع ، والوجوه تكذب ، ولسان المرأة هو الشرك الذى يصيد البلهاء .

تريماين : انه لحكم قاس .

فلورنس : ولكنه حكيم .. ألا ترى أن ندخل ؟

تريماين : لم يحن وقت دخولنا بعد .. لقد حاولت طول اليوم أن أنفرد بك .

فلورنس : وقد حاولت أن أتحاشى ذلك .

تريماين : ولماذا ؟

فلورنس : أظنها غريزة المحافظة على النفس .

تريماين : فلورنس !!

فلورنس : لا ...

تريماين : فلورنس ، انى أحبك .

فلورنس : لا ، أرجوك ، ما قصدت الى هذا .

تريماين : فلورنس ، أريد أن تتزوجينى .. هل تحبين غيرى ؟

فلورنس : لا .

تريماين : اذن ستكونين زوجة لى

فلورنس : لا أقدر

تريماين : لا وجود لمثل هذه الكلمات .

فلورنس : أنت محق لأنى قصدت أن أقول « لا » .

تريماين : وهل هناك سبب ؟

فلورنس : نعـم .

تريماين : عدم وجود الميل ؟

فلورنس : ليس هذا .

تريماين : ألا تجدين فيّ ما يثير اهتمامك ؟

فلورنس : أنت تعلم أنى أجد .

تريماين : ما كنت أعلم ، ولكنى كنت آمل ، آه يا عزيزتى كم أنا سعيد بهذا ، فهل تتزوجيننى يا عزيزتى؟

(ظلت صـــامتة وهى تنظر الى يديه وهما ممسكتان بيديها)

تريماين : هل تكونين زوجة لى ؟ سأخاطب والدك الليلة.. ولن يمانع ، وأنت تعلمين أنى غنى جدا .

فلورنس : ليس لهذا أى اعتبار .

تريماين : لعل هذا هو رأيك ، ولكنه لن يكون رأى أبيك .

فلورنس : وهل الزواج مساومة فى سوق الرقيق ؟

تريماين : فلورنس !! أقصد أنك بزواجى تحصلين على كل ما تشتهين .

فلورنس : عدا الحرية .

تريماين : وفيم تطلبين الحرية يا عزيزتى ؟ وهل يجتمع الزواج والحرية معا ؟ هل فى وسعك هذا ؟

فلورنس : أما آن للرجال أن يفهموا أن النساء قد يردن شيئا غير العواطف والترف ؟ وأنهن يردن أن يكون لهن ما للرجال من الحرية فى توجيه أنفسهن واستعمال عقولهن ؟ وانه مهما بلغت رغبتهن فى الزواج فانهن يدركن أن هناك أغراضا هى أسمى من الزواج .

تريماين : ستنبئك النافورة أنه ليس هناك غرض أسمى من الزواج .

فلورنس : نعم ، لقد قالت لى مثل هذا القول منذ دقائق قليلة .

تريماين : ولقد قالت الصدق .. انك تعذبين نفسك يا فلورنس بالخيالات والأشباح .

فلورنس : لست أفعل هذا ، وانى أعتقد أن الحياة بها ما هو أعظم كثيرا من الأمور الجنسية والاستجابة للهوى .

تريماين : ألا ترين فى الحب أكثر من هذا ؟

فلورنس : لا أجد فيه غير هذا ما لم يكن مقرونا بالتضحية

تريماين : لست بقادر أن أجاريك فى ذكائك ، ولا أريده ان جوهر المسألة لا يعتمد على التحليل والمنطق

ولكنه يتعلق بالغريزة ، وكل ما أقـوله لك يا فلورنس هو أنى أحبك .

فلورنس : يجب أن أضحى بحبك من أجل عملى .

تريفاين : أليس فى انجاب أطفال يصيرون من خيرة الرجال والنساء عمل نبيل ؟ أليس هذا هو أنبل عمل تقوم به المرأة ؟

عجبا ، ألا تصغين لى ؟ سأكرس كل حياتى من أجلك ، وسأغمرك بكل ما هو جميل ، وبكل ما يسعدك ، وستكونين مالكة زمامى والمهيمنة على كل ما أمتلك ، وستصبحين وكأنك ملكة ، لأنى أحبك ، لأنى أحبك .

فلورنس : (تتراجع الى الوراء وقد جاهـدت للتخلص منـه) :

لا يا هنرى ، لا ، لن أستسلم ، ان فى هـذا ما يشبه الخيانة .

تريفاين : وماذا تعنين بهذا القول ؟

فلورنس : لن يغتفر لى هذا ، وقد سمعت النداء !

تريفاين : كيف .. النداء ؟ لكى تكونى راهبة ؟

فلورنس : لا ، انه شىء يأمرنى أن أستعد .

ترياين : أتعنين التمريض بالمستشفيات ؟ ولكن ليس هذا بالنداء يا فلورنس ، ليس فى هذا شيء من التعقل يا عزيزتى ، بعد سنة من زواجك سوف لا تفكرين فى شيء من هذه المرئيات السخيفة ، وسوف تطغى عليها حياة منزلك وحضانته بما فيهما من بساطة ونظام .

فلورنس : انه نداء يا هنرى .

ترياين : نداؤك يا فلورنس عقيدة خاطئة ، أما ندائى اليك فهو من صوت الطبيعة ، وهو نداء قديم يرجع عهده الى مبدأ الوجود انه نداء يتردد سماعه فى الغابات والسهول ، وبين الجبال وفى الوديان ، وهو أقدم من البشرية وأكثر اتساعا

فلورنس : ولكنه ليس أكثر علوا .

ترياين : هو أعلى وأكثر عمقا ، فهو أول البشرية ونهايتها ، وهو مبدأ الحياة وغايتها ، انه نداء الجنس .

فلورنس : أستحلفك بالله يا هنرى ألا تستهوينى فتضعف من ارادتى .

ترياين : انك تحبيننى .

فلورنس : لا تحاول اغراء جسدى ليتغلب على روحى .

تريماين : أنت تحبيننى .

فلورنس : نعـــم .

تريماين : وأكثر من أى شىء آخر ؟

فلورنس : حبا لا مزيد عليه .

تريماين : وهل تتزوجيننى يا فلورنس ؟ (تظل صامتة) لا تعذبينى يا فلورنس .

فلورنس : انك أنت الذى تعذبنى .

تريماين : انى متمسك بما قلت ، انك تحبيننى .

فلورنس : نعم ، ولكن لتقف عند هذا الحد ، ولا يمكن أن يزيد على ذلك .

تريماين : سيكون أكثر من هـــذا ، ستكونين زوجتى يا فلورنس وليس فى مقدورك أن ترفضى .

فلورنس : لا ، دعنى أذهب ، يجب أن أرفض .

تريماين : لن ترفضى ، وستكونين زوجة لى .

فلورنس : لا ، (وقد عاودتها القوة) لن أتزوج أبدا ، وأنا مؤمنة بالنداء .

تريماين : نداؤك يا عزيزتى ما هو الا الصـــدى الذى

يسخر من تصوراتك ، وما دليلك على أنه نداء؟

فلورنس : لست أدرى .

تريمين : لا دليل !! ليس لديك الدليل ، وكيف يكون هناك دليل ؟

(يسود السكون فترة قليلة) .

فلورنس : (ظافرة) : ولكن كان هناك دليل يا «هنرى».. والدليل موجود يا هنرى ، قد لا تراه ، ولكنى رأيته .. رأيت الخلائق .

تريمين : ليس هناك خلائق .

فلورنس : هناك أقوام كثيرون يناضلون الموت ، ورأيت لنفسى بينهم مكانا ، ولقد عاودتنى هذه الرؤيا، يا الهى ، طهر يدىّ حتى أقوم بهذا الذى كتبته علىّ ، وابعث فى روحى القوة حتى لا آكل ولا أهن فى الاستعداد ، وحتى أثبت أمام الاغراء فأطرحه جانبا .

تريمين : فلورنس !!

فلورنس : .. اقبل منا تضحيتنا بحبنا .

تريمين : لا تقولى هذا يا فلورنس واسحبى كلامك .

فلورنس : .. كى أكون حرة طليقة فأقوم بهذا العمل ،
واجعل يا الهى منا صديقين ، وهبنا الشجاعة .

(تلتفت وتمد يديها اليه) ٠

تريمين : (يمسك بيديها ويقبلهما) : آمين .

تنزل الســـتار

الفصل الثانى

المنظـــر الأول

(غرفة بشـــارع هارلى(١) ، وهى مؤثثة على نمط ما تكون عليه حجرة المشرف العام لأحد بيوت التمريض · وكانت « لجنة السيدات » قد فرغت توا من انعقادها وترى فلورنس ، وهى الآن فى الرابعة والثلاثين ، وصارت القوة المحركة لهذه اللجنة ، تراها وقد جلست أمام مكتبها تكتب على بعض الأوراق آخر ما يعن لها ، وكانت « اليزابث هربرت » وقد أصبحت سيدة مليحة وموهوبة تجلس معها ·

ولقد أثيرت مناقشات حادة حول ما وصلت اليه الحال فى القرم ، حيث كان الجنود البريطانيون يشتركون فى القتال) ·

فلورنس : هيا ، وقعى بامضائك على المحضر يا اليزابث .

اليزابيث : (وقد وقعت) : كيف تهاجمين سدنى يافلورنس؟

فلورنس : حكمى عقلك يا عزيزتى اليزابث ، فلن ينسب أحد ما فى القرم من فوضى الى خطأ وقع من سدنى .

---

(١) شارع هارلى يعتبر منذ أمد طويل مركزا لمهنـــة الطب فى لندن ·

اليزابيث : انه الوزير المسئول .

فلورنس : لا ، ان المسئول هو دوق نيوكاسل ، ولو بحثت عن الحقيقة لوجدت المسئول أولا وأخيرا هى الادارة الطبية الحربية .

اليزابيث : ان النقد من أسهل الأمور .

فلورنس : انى أعلم هذا ، وأنا لا أريد النقد ، ولكنى أريد أن أعمل شيئا .

اليزابيث : وماذا فى مقدورك أن تعمليه يا عزيزتى فلورنس؟

فلورنس : أود أن أكون ممرضة .

اليزابيث : ولكن الممرضات لا يسمح لهن بالانخراط فى سلك الجيش .

فلورنس : لقد اقترحت علىّ « ليدى مريا فورستر » أن أكوّن فرقة صغيرة من الممرضات ، على أن تكون النفقات مناصفة بيننا ، ولا تتحمل الدولة شيئا .

اليزابيث : أتعنين أنك تتركيننا هنا ؟ عجبا يا عزيزتى فلورنس ! انى أراك غير عملية ، وأرى أن والدتك لم تخطىء فى رأيها عنك .

فلورنس : لن أتركك هنا بطبيعة الحال ما دمت متمسكة

بى ، لم أثر هذه المسألة صباح اليوم ، لأنى أردت أن أتحدث معك أولا بشأنها . .

اليزابيث : نعم أعلم ذلك ، وانه لعظيم منك أن تفكرى فى هذا يا عزيزتى فلورنس ، ولكن ألا يكون عجيبا أن تذهبى الى « اسكوتارى » وليس معك الا ممرضتان فقط ؟ وماذا يقول أهل بيتك ؟ وهل يسمحون بذلك ؟

فلورنس : لا أعتقد هذا ، ولكنى أظن أنى لن أجعل لهم مجالا للتدخل .

اليزابيث : لاجدوى من المناقشة يا عزيزتى ما دمت قد عقدت العزم مقدما بالفعل .

فلورنس : ولكنى أتوق لمعرفة رأى مستر هربرت .

اليزابيث : سدنى ؟ أنت تعلمين من هو سدنى ، وتعلمين كيف هو معجب بعملك ، وسوف يوافق بطبيعة الحال ، وبودى أن أوافق كذلك يا فلورنس ، ولكن يخيل لى أن كل شىء يكتنفه الغموض .

فلورنس : نعم ولكنك تعلمين أن الشىء الذى يؤدى لأول مرة يكون فيه شىء من الغموض فى مبدأ الأمر.

اليزابيث : انى أوجس خيفة ولست أدرى لماذا . انه

مشروع جميل حقا ، وأنت جديرة بتنفيذه ، ولكنى رغم هذا متخوفة ، ولولا حبى لك وثقتى العظيمة فيك ، لأخبرت سدنى لينفض يده منه .

فلورنس : عجبا ، ولماذا ؟

اليزابيث : لو كنت أعلم لماذا لعرفت كيف أتصرف .

فلورنس : ولكن لا تجعلى مشاعرك الخاصة تعترض طريقى ..

اليزابيث : أنا امرأة ولست بقديسة مثلك ، ولو أنى ظننت أن هذا سيلحق بسدنى أذى ، لاعترضت ، وما كنت لأهتم بأحد ، ولا بالأهداف السامية ، ولا بالمثل ، ولا بأى شىء .

فلورنس : حسنا ، لن يضار « سدنى » فى شىء اذا ذهبت الى القرم ، وهذا من بواعث راحتى .

اليزابيث : لا .. لست أدرى .. ولكنى قلقة حيال هذا الأمر ..

(وتدخل مسز نيتنجيل) .

مسز نيتنجيل: فلورنس .. ما هذا السخف الذى أسمعه ، هذا مستحيل يا عزيزتى .

فلورنس : ليس هذا مستحيلا بحال .

مسز نيتنجيل: ولكنه مستحيل يا عزيزتى كل الاستحالة ، وانى لأعجب كيف تنتظرين منا أن نوافق على ذهابكن الى حرب ولا واقى لكن ؟ واعلمى أن البقاء فى معسكر الجند ليس كالجلوس فى حجرة استقبال ، لا شك انك توافقيننى يا مسز هربرت ، أليس كذلك ؟

اليزابيث : نعم ، ولكن ليس لى أن أتدخل .

فلورنس : اذا كانوا أهلا للقتال ، فهم أهل كذلك لأن يُعنى بهم .

مسز نيتنجيل: يا الهى !! أترضين لنفسك الانقياد لما تنشره الصحف من عبارات مثيرة ؟

فلورنس : حالة الجرحى بالقرم يا أمى ، لم تكن وليدة اثارة الصحف .

مسز نيتنجيل: وما دخلك أنت ؟ متى أصبحت فى مصاف الالهة ؟ ان هذا لا يليق يا عزيزتى فلورنس ، ولست أدرى من أين جئت به .

فلورنس : وددت لو أن الناس ينظرون أحيانا بعينى .

مسز نيتنجيل: يجب أن تعترفى يا عزيزتى فلورنس أنى ووالدك

قد راعينا شعورك وسمحنا لك بالمجيء هنا ، ولقد أعطاك أبوك دخلك كما لو كنت من الذكور ، وليس من العدل أن يكون جزاءنا طلبك الذهاب ومعك ممرضتان تجيئين بهما حيثما اتفق ، وتذهبين بهما الى آسيا الصغرى ومن المحتمل جدا أنكن ستخطفن عنوة وقسرا وتقاسين ما لا يحتمل من الأهوال ، وما من فتاة انجليزية تقوم بمثل هذا العمل .

فلورنس : ولكن البنات الفرنسيات يقمن به ، وأمامك « أخوات الاحسان » .

مسز نيتنجيل: ولكن هذا يختلف تمام الاختلاف فهن راهبات.

فلورنس : حسنا ، وأظن من السهل اختطاف الراهبة كما تختطف الممرضة .

مسز نيتنجيل: هناك اختلاف كبير ، وما أنا بقادرة على أن أوضح السبب ، ولكنه هو الحقيقة بعينها . وأنت يا عزيزتى غير عملية بالمرة .

احدى الممرضات : لقد أقبل سيد يدعى « تريماين » .

فلورنس : أرجو أن تسمحى له بالدخول .

مسز نيتنجيل: أراك الآن أكثر اتزانا يا فلورنس ، يا لـه من

عزيز .. يجب أن نترك لكما المجال لتتحدثا .. وانه لجميل حقا أن يأتى بعد تلك الطريقة التى عاملته بها .

فلورنس : هنرى تريماين وأنا .. صديقان يا أمى .

مسز نيتنجيل: نعم يا عزيزتى ، وليس هناك ما يمنع استمرار صداقتكما اذن .. (تنتظر فترة) أنا واثقة أننى ووالدك صديقان حميمان .. وقد يكون الأمر أكثر تعقلا لو ..

على أنى لن أزيدك شيئا على هذا الآن .

وانى أود شراء بعض الطوابع فهل تأتين معى يا اليزابث الى مكتب البريد ؟

فلورنس : ثم تعودين يا اليزابث ، أليس كذلك ؟ ان أمامنا عملا وأود أن أتحدث اليك .

اليزابيث : نعم ، سأعود ، واجتهدى يا عزيزتى أن تستجيبى لما تريده أمك .

(وتخرج مسز نيتنجيل ومعها اليزابث ، وتدق فلورنس الجرس ، ثم يدخل هنرى تريماين ، ولم يكن مرور ست سنوات ليغير منه كثيرا) .

فلورنس : أهلا هنرى ، أنا سعيدة لرؤياك .

تريمين : لم أرك منذ سنة تقريبا .. لقد كنت دائم الترحال .

فلورنس : ما أجملها من تسلية !! وأين ؟

تريمين : بالصحراء .

فلورنس : ما أمتعها ، ولكن أغلب الظن انها تشعرك بالوحدة ..

تريمين : الأماكن كلها عندى سواء ما دام المرء يهرب مما ليس فى وسعه الحصول عليه .

فلورنس : أراك يا هنرى تتكلم كالتلميذ الذى أضناه الحب ، ولابد أنك قاربت الأربعين ، وأنا يا عزيزى قد بلغت الرابعة والثلاثين .

تريمين : وهل أنت سعيدة ؟

فلورنس : أنا مشغولة ، وهذا أحسن بكثير

تريمين : فلورنس ، لم أقل لك كلمة عن الزواج منذ تلك الليلة التى كنا فيها بجوار النافورة ، وطلبت منى أن أكون صديقا ، وقد حاولت أن أكونه ، حاولت ذلك ما يقرب من ست سنوات .

فلورنس : لقد كنت مدهشا حقا ، ولقد كانت رسائلك نعم العون لى ، كما أن زياراتك أمدتنى بالقوة دائما ، فهل تريد الآن أن تغير كل هذا وتعكر صفو صداقتنا ؟

تريفين : ولكنى انتظرت ست سنوات من أجل «الرؤيا» كما تسمينها حتى تصبح حقيقة . هل تريدين أن تدخلى فى روعى أن هذا الذى تقومين به هو طريق الحياة الذى طلب منك أن تسلكيه ؟

فلورنس : لا تهزأ بى يا هنرى ، انها بداية على الأقل ، والأفضل أن نعمل حتى ولو كان العمل فى مثل ما يحيط بنا من قيود ، بدل التسكع فى لندن ، والتثاؤب ، وزيارة الغير من السيدات المترفات على غير موعد ، أو الحياكة وضياع الوقت .

تريفين : لم أقل هذا ، ولكن لا جدوى مما تعملين .

فلورنس : لا أعتقد هذا ، انى أحاول الذهاب الى القرم

تريفين : كيف ؟

فلورنس : كممرضة .

تريفين : ولكن ليس هناك ممرضات يافلورنس .

فلورنس : نعم ، ولأكن أنا الممرضة ، وأظن أن بوسعى أن أدبر المال وآخذ معى اثنتين .

تريفاين : ما هذا ؟ بصفتك الشخصية ؟؟

فلورنس : ولم لا ؟

تريفاين : لم لا ؟ ما سمعت فكرة أكثر من هذه شذوذا ، لن يكون لك أى مركز هناك ، وهل تظنين أن المسئولين من رجال الجيش يسمحون للمدنيين من غير الموظفين أن يتدخلوا فى شئون مستشفياتهم ؟ انهم لن يسمحوا بذلك لأنهم يخضعون للنظم الحربية ، ولذا فالأمر سخيف .

فلورنس : ولكن سوف نزود بخطابات تتقدم بها الى السفارة .

تريفاين : نعم ، بالأستانة ، ولكنها ليست مكان القتال .

فلورنس : ولكن « اسكوتارى » حيث توجد المستشفيات ضاحية من ضواحى الأستانة .

تريفاين : ولكنها تحت الادارة الحربية وليس للسفير أى نفوذ هناك ولو فرض أن له هذا النفوذ ، فهل تظنين أنه يستغله ؟

فلورنس : ولكن الحكومة ستزيد من نفوذه .

تريفاين : ولكنه لن يتخطى المسئولين العسكريين ، واذا كان هذا فى مقدوره ، فلن يفعله من أجل سيدة لا يعرفها ؟ وانى مخبرك بما سيفعله تماما ، — سيطلب الى زوجته أن تدعوك الى تناول الشاى بعد الظهر ، كما تدعوك الى حفلة مسائية أو حفلتين ، وسيقابلك الجميع بالبشر والابتهاج الى أن تحاولى عمل شىء ، وعندئذ يتجهم لك الجميع ، وتعترضك الصعاب من كل الجهات ، وستجدين نفسك أينما ذهبت فى مواجهة موظف يتجهم لك ويسد الطريق . لا تفكرى فى هذا يا فلورنس ، واقبلى النصح يا عزيزتى ، وتذكرى أنى قضيت بالسلك السياسى ثلاث سنوات ، والمصالح الحكومية العامة لا تشجع الهواة ، وبخاصة من كان يعتقد منهم أنه ملم بالعمل ويعرف طريقة ادائه .

فلورنس : هذا لا يهمنى ، وانى أومن ايمانا صادقا فى « النداء » الذى يناديني كى أعمل (فترة سكون) هل تشك فى هذا يا هنرى ؟

تريفاين : حسنا .. فكرى قليلا ، انك قد قضيت زهرة

العمر وأنت تجرين وراء الخيالات ، ولقد أضنيت نفسك بالذهاب من مستشفى الى آخر، وما النتيجة ؟

فلورنس : لقد تعلمت .

تريفاين : ولكنك تعلمين أن هناك مئات من السيدات يقدرن مثلك على ادارة هذا المكان .

فلورنس : ليس هذا هو العمل الذى أصبو اليه ، ولكنه خطوة لها ما بعدها .

تريفاين : حسنا ، ولتكن الخطوة الأولى، ودعينى أعاونك.

فلورنس : كيف ؟

تريفاين : سأبين لك ، اختارى المكان ، وسأبنى لك مستشفى صغيرا ، وسيكون على نسق مستشفى « قيصر ورث » الذى ذهبت اليه فى ألمانيا ، وفى هذا تحقيق لأحلامك ، وسنقوم بالعمل معا ، وخذيه عهدا علىّ بأننا سنتكاتف حتى يتم انشاؤه وستكونين المهيمنة عليه ، وسنكرس حياتنا للعمل .

فلورنس : ولكن العمل الذى أنشده لا يمكن لامرأة متزوجة أن تقوم به فى أوقات فراغها .

تريبانو : انى لأعجب ويساورنى الشك أحيانا فى وجود أى مشاعر لديك .

فلورنس : ليس هذا من العدل ؟

تريبانو : انك تقابلين كل ما أقوله بأعذار مسبوكة الحبك .

فلورنس : وهل تظن أنه من السهل أن أقول « لا » ؟ وهل تظن أنى لا أتألم ؟ ألا تدرك أننى .. ولكن هل من سبيل أحاول بها تفهيم الرجال ؟

تريبانو : لست أدرى يا عزيزتى ماذا أقول ، ولست أريد أن أثقل عليك بكلمات الاغراء ، ولكن ..

فلورنس : ولن أجعلك تفعل ذلك يا هنرى .

تريبانو : وهل أنت واثقة من نفسك ؟

فلورنس : كل الثقة ، وهل تظن أنى أقول هذا القول ان كنت غير واثقة ؟

تريبانو : حسنا ، ولا تضربى بفكرتى عرض الحائط ، وفكرى فى الأمر قليلا ، وستكونين بهذا سعيدة ، وستسعدين بهذا والديك كما تسعدينني .

فلورنس : وماذا يكون حال الجرحى بالقرم ؟ أتظن أنهم سيسعدون ؟

تريفاين : أمر العناية بهم موكول الى الحكومة ، فهو عملها وليس عملك .

فلورنس : هذا ما يقوله الجميع ، ولكن الموت يحصد أرواح هؤلاء الجرحى دائما نتيجة الاهمال .

تريفاين : وأى عمل جليل تظنين يا فلورنس أن تقوم به سيدة هناك ، بين الدماء ودخان الحرب ؟ وهذا كلام الجنود أنفسهم .

فلورنس : ولكنى أعتقد مع كل هذا أن الوقت قد حان ، وأن العمل الذى فرض علىّ وجب أداؤه .

تريفاين : وما دمت قد قررت المجازفة والعناد .. فخبرينى يا عزيزتى كيف تبدئين ؟

فلورنس : (ببساطة) سيدلوننى على الطريقة .

احدى المرضات : يؤسفنى أن أقطع حديثكما ، لأن مستر « سدنى هربرت » قد حضر ومعه سيدان ، والأمر هام .

فلورنس : نعم ويجب أن أقابلهم يا هنرى ، وزوجته عضو باللجنة معى ، وهو شديد الاهتمام بالمشروع ، وأظنه قد أتى بالجرّاح الجديد ، — نعم دعيهم يدخلون .

تريماين : فلأذهب أنا ، وأرجـو أن تفكرى فى مشروع المستشفى .

فلورنس : لا يا هنرى ، انى آسفة .

تريماين : وداعا ، ولا أظن أنى سأراك .. قبل أمد بعيد .

فلورنس : هل ستسافر ثانية ؟

تريماين : نعـم .

فلورنس : فى رحـلة ؟

تريماين : أشبه بهـذا .

فلورنس : وماذا تكون تلك يا هنرى ؟ أنت لا تنوى ..

(ويقطع الحـديث دخـول هربرت ، وبلمرستـون ، ومن ورائهمـا الدكتور « سمث » وهو فى أواسط العمر ، ويدل مظهره على أنه أحد المسئولين ، وتستدير فلورنس وترحب بهم قائلة) :

فلورنس : مستر هربرت ! لورد بلمرستون !

بلمرستون : يسرنى أن أراك تثابرين لتحقيق أمنيتك .

فلورنس : نعم ، وعملنا شاق هنا ، أليس كذلك يا مستر هربرت ؟

هربرت : ان اليزابث لا تمل التغنى بمديحك .

(تريماين يغادر الحجرة أثناء الحديث) .

فلورنس : وهل جئت للتفتيش ؟

هربرت : لا ، ولكن لنتحدث معك .

پلمرستون : هل تتابعين أحداث الحرب ؟

فلورنس : نعم ، كما تأتى بها الصحف .

پلمرستون : وهل قرأت مقالات التيمز ؟

فلورنس : نعم ، أتظن أنها مبالغ فيها ؟

پلمرستون : لست متأكدا من هذا ، ولابد أن يكون لها أساس .

فلورنس : ولماذا اذن لا تبعث بممرضات ؟ لقد قام الفرنسيون بهذا ، وقد ذهب كل صديقاتى بجمعية « أخوات الاحسان » من باريس الى هناك .

هربرت : هذا ما نريد التكلم فيه .

فلورنس : لقد اقترحت ليدى « ماريا فورستر » أن أقوم معها بالعمل،وأظنك تعلم عنه يالورد پلمرستون، ولقد قالت لى انك كنت ستكتب الى السفير بشأنه .

پلمرستون : نعم ، ولكن قد لا يكون هذا ضروريا ، والحق

انى لا أرى أن مشروع ليدى «ماريا» مشروع عملى .

فلورنس : كل الناس يتحدثون عما هو « عملى » ، والجرحى يموتون فى نفس الوقت نتيجة الاهمال .

هربرت : انتظرى .

فلورنس : ولكن هل ستفعل الحكومة شيئا ؟

هربرت : نعم ، بطبيعة الحال ، ويجب أن أوضح لك ، ان هذا السيد الذى معنا هو الدكتور « اندرو سمث » وهو مدير مصلحة الخدمات الطبية بالجيش .

فلورنس : حسنا ، تشرفنا .

سمث : تشرفنا .

هربرت : لقد قررت الحكومة ألا يترك الأمر الى أريحية الأفراد وتفكيرهم. فهو شىء جديد على الجيش، ولكنا عزمنا على تنظيم هيئة من الممرضات ، نبعث بها الى المستشفيات بالقاعدة الحربية .

فلورنس : انه قرار جميل حقا .

هربرت : لا شك فى ذلك ، ولكن الصعوبات جسيمة

لأننا سنبدأ كل شيء من جديد ، ونحن فى حاجة الى معونتك ، وسيوافيك الدكتور « سمث » بالتفصيلات .

فلورنس : حسنا ، ولا شك أنكم تطلبون منى أن أخبركم من أين أجيىء بالممرضات .

بلمرستون : لا ، قد لا يكون مستوى المعرفة بمجلس الوزراء عاليا ، ولكننا على الأقل قادرون على ايجاد الممرضات . على أن الذى نجهله حقا — اذا لم نجد منك عونا — هو أين نجد العقل المنظم المبتكر الذى يأتى بالنتائج .

هربرت : اننا نريد سيدة مجربة وذات خلق محمود ، ومؤهلات ممتازة لتصحب الممرضات الى قاعدة الحرب ، فتذهب بهن وتعيد تنظيم كل الادارة بالمستشفيات .

فلورنس : أنا ؟

بلمرستون : نعم أنت ، فما قولك اذن ؟

سمث : لا جدال أن هذا واجب ليس من السهل أداؤه ، اذ لا أمل لسيدة أن تحقق الكثير فى شيء كان ..

من الصعب على الهيئة الطبية وما لديها من موارد في الادارة الحربية أن تؤديه .

فلورنس : في الواقع ، لو أنها ابتدأت وهي بهذه الروح فلا أمل لها في تحقيق الكثير .

هربرت : لقد كان الدكتور « سمث » محقا عندما أبان الصعوبات .

فلورنس : ولكنه كان مخطئا في الرضوخ اليها .

بلمرستون : مخطىء تماما ، والموقف يا مس نيتنجيل يتلخص في الآتي ، ولنكن أمناء في القول :
لم تكن قيادة الحرب على ما ينبغي ، ولكن ليس من الصواب أن نعود باللائمة على أشخاص ، وأهم شيء نقوم به الآن هو تصحيح الأوضاع ، وهناك مسائل كثيرة يراد التغلب عليها ، ولكني قررت مع هربرت ، أن أهم ما نقوم به هو القضاء على الفساد في الجيش ، والمسألة لا تقتصر على مجرد التمريض ، ولكن المراد هو فحص الجهاز الطبي ، وطرق التموين بأكملها ، وذلك بعقلية جديدة قوية ، تكون لها خبرة بادارة المستشفيات ، وقد وجدك هربرت خير من يقوم

بهذا ، وأنا أوافقه ، وما نراه سوف يقره مجلس الوزراء ، فهل توافقين ؟

فلورنس : وهل أجمعت ارادتكما عن عقيدة على أن يناط بى هذا العمل ، مهما تكشف لى من خبايا ، ومهما وجدت من ضروريات ، ومهما كان لى من مطالب ، وعلى أن تكون لى كامل السلطة على الممرضات ؟

سمث : أظن أن الأمر استشارى فى أساسه ، وبطبيعة الحال ستكون الأوضاع الراهنة باقية فيما يتصل بسلطة مديرى الهيئة الطبية العامين .

بلمرستون : انك تضيع الوقت يا دكتور سمث .

فلورنس : ولكن هذا فى غاية الأهمية ، فكيف يكون مركزى ؟ ومن المسئول ؟

هربرت : ستكونين مسئولة أمام الوزير ، وسيكون اتصالك به مباشرة ، ولكن لورد « راجلان » بطبيعة الحال هو القائد الأعلى ، ولذا يجب التعاون مع أطبائه العسكريين .

فلورنس : هذا طبيعى ، ولكن كيف يكون الحال مع الممرضات ؟

بلمرستون : ستكونين المهيمنة عليهن فى كل الأمور ، والآن ماذا تقولين ؟

(ويقطع الحديث دخول مسز نيتنجيل واليزبث ، ولم تكن فلورنس قد نطقت بالجواب) .

مسز نيتنجيل: أستميحك العفو يا عزيزى اللورد بالمرستون ، وما أجملها من فرصة أن أراك أنت ومستر هربرت !!

هربرت : أتسمح بأنى أقدم لك مسز نيتنجيل يا دكتور سمث ، وأنت تعرف زوجتى بطبيعة الحال ؟

فلورنس : أظن من الواجب أن تسأل والدتى يا لورد بلمرستون .

مسز نيتنجيل: ما هذا يا فلورنس ؟ هل هى دعوة لوليمة ؟

فلورنس : ... أظن أن بالامكان تسميتها كذلك .

مسز نيتنجيل: حسنا ، ولقد برهنت بهذا على انك مطيعة حقا يا عزيزتى ، غير أنى أظن أنك قد بلغت من العمر ما يجعلك تقررين بنفسك ما تريدين فى أمر بسيط كهذا .

بلمرستون : يحسن أن نوضح الأمر يا هربرت .

هربرت : ان الحكومة تريد يا مسز نيتنجيل أن تذهب فلورنس الى القرم لتشرف على المستشفيات .

مسز نيتنجيل: لتذهب الى الحرب !! فلورنس !! الحكومة !!

بلمرستون : نعم ، مجلس الوزراء ، ونحن هنا بصفة رسمية.

مسز نيتنجيل: ولكن .. هل تقوى هى على ذلك ؟

هربرت : ليس هناك غيرها من هو أقدر منها .

اليزابيث : (تردد الكلام همسا) : ليس هناك غيرها فى العالم .

(فترة سكون قصيرة)

مسز نيتنجيل: (تلتفت نحو فلورنس وقد كتمت أنفاسها فى كبرياء ودهشة) : عزيزتى، لقد كانت حماقة منا حقا أن نجهل قدرك ، وانك فخورة بك يا عزيزتى ، ولست أدرى كيف أشكر ربى ...

فلورنس : (تجرى نحوها وتقبلها) : أمى ، حبيبتى ...

(فترة سكون قصيرة)

(وتمد من قامتها ، وتطوق أمها بذراعيها وتقول فى بساطة :ـ سادتى ، سأعمل ماتريدون) .

تنزل الستار

المنظر الثـــانى

حجرة صـغيرة بالطابق الأرضى فى مستشفى « ثكنة برج الأخوات » باسكوتارى والوقت فى أحدى أمسيات الشتاء البارده، وترى « سلينا بريس بردج » بجوار منضدة صغيرة وهى تقوم بعمل الحسابات ، كما يرى الأونباشى « چونز » وهو أحد المكلفين بالخدمة فى المستشفى ، منهمكا فى حل ربطة كبيرة ، وتصنيف وعد ما تحويه من ملابس صوفية ويدخل فى العنبر جراح بالجيش وهو يسرع وعليه مسحة من الغم ، ثم يتوقف برهة عندما لايجد فلورنس) .

الجراح : أين السيدة الرئيسة يا مسز (بريس بردج) ؟

سـلينا : لقد نزلت الى المخازن عند ضابط الامـدادات كى تحصل على قليل من البطاطين للجرحى الجدد الذين وصلوا اليوم .

الجراح : انه لعار وأى عار ، لا أكاد أحصل على أبسط الاحتياجات الطبية ، ويبدو لى أنهم يظنون فى انجلترا أن كل الذى نحتاج اليه فى المستشفى العسكرى هو ربط من الدبابيس .

الأونباشى : زائد خمسة تصير ثمانية وأربعين ، ونضيف اثنين تصير خمسين .

(وينتظر ليحزمها فى ربطة وهو مبتهج) .

عفوا يا سيدى ، وانظر لترى أن كل هذا شىء جديد عليك وانك لم تحضر هنا الا من حوالى شهر .

الجراح : (محتدا) جديد علىّ ؟ نعم ، ولكن شهرا واحدا لا يكفى لاكتشاف عدم الكفاية فى العمل .

الأونباشى : (همسا) عدم الكفاية ! مدنيون فى زى رسمى ! وماذا يعرف المدنى عن الجيش ؟

الجراح : ما هذا ؟

الأونباشى : لا شىء يا سيدى ، لا شىء ، لم أقل الا أن المدنيين بطبيعة الحال يرون الأشياء من ناحية أخرى . عفوا يا سيدى ، انك مدنى ، أليس كذلك ؟

الجراح : هذه وقاحة منك لا أريدها .

الأونباشى : لا يا سيدى .

الجراح : هناك نقص فى الأربطة مرة أخرى يا مسز «بريس

بردچ » وليس لدينا مطهرات قطعيا ، وليس عند المرضى الجدد أى أمتعة ، ومعذرة ان قلت انهم أمروا أن يتركوا أمتعتهم فى بلغاريا ، فليس لديهم ملاعق ولا شـــوك ولا قمصان ولا جـــوارب ولا شيء غير ما عليهم من الثيـــاب . وما كنت لأصدق أبدا أن تصل الحالة الى هذه الدرجة من الفوضى (ثم يخاطب الأونباشى) : ها هى ذى القمصان ، انى أريد تلك القمصان .

الأونباشى : احترس يا سيدى ، أرجوك الاحتراس ، فالأرقام المكتوبة على الربط غير صحيحة ، ولابد من عدها أولا ، وها هو ذا العدد ينقص واحـــدا يا مسز « بريس بردچ » فيصير النقص أربعة .

الجراح : لا ضير فى هذا ، وكم أحصيت ؟

الأونباشى : مائة وسبعة وثمانون ، وكان الواجب أن تكون مائتين .

الجراح : (يلتفت الى « سلينا ») اعطينى خمسين من هذه للعنبر (ب) .

ســـلينا : كل ما أرجوه أن تكتب لى ايصالا بالتسلم .

الجراح : شكرا — وأه لديكم أية ضمادات ؟
ان تلك الجرا- مخيفة .

سلينا : ها هى ذى (ج ربطتين من صوان
وتحضرهما له)

الجراح : انه لشىء مدهش ن مس نيتنجيل عبقرية حقا
وتستحق أن يقام لها تمثال ، وانى جاد وأعنى
ما أقول .

سلينا : ولكن كبير الجراحين لا يرى هذا .

الجراح : كبير الجراحين أحمق لا يفهم شيئا ولا يعمل عملا
الا أن يكتب التقارير الكبيرة ، ويبتكر
استثمارات فسيحة كى يملأها الأطباء
المكدودون ، وأما الطب فكأنه لعبة داخل حجرة
للاستقبال ، يا للحقارة !!

(ويسرع بالخروج بما حصل عليه ، عندما
أقبلت ممرضة وعليها أمارات الانزعاج) .

سلينا : حسنا ، ما وراءك يا مسز وليمز ؟

مسز وليمز : المطلوب : مئتان وسبعون وجبة بيض اضافية ،
فمن أين نأتى بها ؟

سلينا : وماذا يقولون فى المخازن ؟

مسز وليمز : كما هـ... تأسف وليس لدينا بيض » .

الأونباشي : ذلك لـ... الطبية مغمورة بالقنابل والرصاص... ملأ عربات القطارات ، حتى يظن الناس... ارة الحربية تتخيل أن الجراح يشفيها البار... ، وأن المدافع تعبأ بالنبيذ والبيض المحفوظ .

سلينا : ليس فى هذا ما يستوجب المزاح .

الأونباشي : نسأل الله الرحمة يا سيدتى ، لأنك ان نظرت الى الأمور بوزارة الحربية البريطانية نظرة جدية ، لمت من الحسرة .

سلينا : انهم يبذلون ما فى وسعهم للاصلاح ، ولقد قال هذا مستر هربرت بنفسه ، وهو عهد قد قطعه على نفسه باسم الحكومة .

الأونباشي : نعم ، ولكن هذا هو موضع الخطأ عندكم ، ومن يكون مستر هربرت عند الجاويش الذى يخرج ما بالمخازن ؟ انه لا يهتم الا بضابط الامدادات ، وبالقائد الحربى ، وكل ما يهمهم هو الخزينة ووزارة الحربية .

سلينا : ولكن هذا يساعدنا فى الحصول على البيض ،

أليس كذلك ؟ ولدينا منه عدد قليل فى دولاب المخزن ، ولكن مس نيتنجيل تريد أن يحتفظ به احتياطيا للحالات شديدة الخطورة ، ألا تظن يا چونز أن ضابط الامدادات التعس لديه بعض البيض بالمخزن ؟ انه لا يعرف قط ما لديه من أشياء .

الأونباشى : لا أنكر انى أعرف أن هناك بيضا بالمخزن ..

(سلينا تكتب مذكرة بذلك)

ولكنك تعلمين أن ضابط الامدادات لا يخرج ما بصناديق المخزن الا بناء عن قرار من المجلس ، وان هو فعل غير هذا أصبح مسئولا عن دفع ثمن الشىء ولن ينعقد المجلس حتى الأسبوع القادم .

سلينا : عجبا ! عجبا ! أليس الرجال كالأطفال ؟ ألا يعلم الناس أن هناك حربا قائمة ؟

فلورنس : (صوت من الخارج) : لا ، لا ، يا مستر « بامفورد » أرجو أن ننتهى من هذا الآن .

سلينا : حسنا يا مسز وليمز ، سأرى ماذا يمكننى أن أعمله .

فلورنس : (تظهر بالباب) : ادخل .

(بامفـــورد وهو ضـــابط الامـــدادات باسكوتارى، رجل كهل بدين، يبدو حقودا يتبعها وهو غير راض) .

اجلسى يا سلينا ، هل لك أن تعطينى حسابات المشتريات ، لأرى ما زوّدت به المستشفى ؟

ســلينا : نعم ، ها هى ذى عندى .

بامفورد : ولكن لا شأن لى بهذا يا مس نيتنجيل ، وان أنت اخترت أن تصرفى من مالك الخاص بدلا من الحضور الى مخزنى فلا تنتظـرى أن ترد لك الخزينة هذا المبلغ .

فلورنس : عندما أقترح رد المبلغ يا مستر بامفورد فحينئذ يكون لك الحق فى التحـدث عن ذلك ، وأما ما يختص بمخزنك فدعنى أسألك هل تعرف كم وصلنى منه منذ حضورى الى هنا ؟ لا شىء ، ولكن مهلا ، لقد وصلنا مئتا رداء من أردية المستشفى فى الشهر الماضى . وهل تعرف كم مرة طلبت ؟ انظر الى هذه القائمة : « غير موجود

بالمخزن » « غير موجود بالمخزن » ... وكلها ممهورة بتوقيعات كاتبك ، أليس كذلك ؟

بامفورد : قد يكون ...

فلورنس : أتدرى كم قطعة غسلت لهذا المستشفى فى الشهر السابق لوصولى ؟ انها ست ! وهذا هو صميم عملك ، أليس كذلك ؟

بامفورد : لقد خذلنى المتعهد .

فلورنس : اذن أنت قصرت فى اشرافك عليه ، فأنا أتعامل مع نفس المتعهد .

بامفورد : لدى أعمال أخرى غير ملاحظة الغسالات وهن يغسلن .

فلورنس : ومما يؤسف له أنك لم تقم بغسل بعضها ، والمفروض أنك تموّن هذا المستشفى ، أتدرى بماذا أمددته أنا من مالى الخاص ؟ لقد أمددته بأحد عشر ألف قميص ، وبما يزيد على سبعة آلاف من السكاكين والشوك والملاعق ، وبألفين من الأرواب التركية ... واليك هذا الحساب الشامل فانظر اليه ، وانظر الى قائمة وسائل الترفيه الطبية ، واليك هذه فانظر اليها وهى

بتاريخ أول يناير ، أى منذ شهرين ، لقد تمكنت من الحصول عليها ، وذلك قبل أن أرسل فى طلب هذه الأشياء وأشتريها بنفسى لتوزيعهـا على المرضى (وتقرأ): صحون من الصفيح—لاشىء، شمعدانات — غير موجود ، أقداح للشرب — غير موجود ، سكاكين وشوك وملاعق — غير موجود ، وسادات (مخدات) — غير موجود ، شباشب — غير موجود ، قمصان فنلات — غير موجود ، جوارب — غير موجود .

بامفورد : أرى انك لم تراع موقفنا وقد نسيت أن احدى سفننا قد غرقت فى الاعصار .

فلورنس : لم أسمع منذ حضورى هنا مبررا لسوء الادارة غير تلك السفينة المشئومة التى غرقت ، حتى ليظن الانسان أن جميع موارد بريطانيا العظمى غرقت مع تلك السفينة . لقد غرقت السـفينة «پرنس» فى الرابع عشر من نوفمبر وكان أمامك مهلة ستة أسابيع لتستعيض عن تلك الامدادات أو تدبرها محليا .

بامفورد : لا يمكننا الحصول على هذه الأشياء محليا .

فلورنس : ما دام هذا فى امكانى ، فهو فى امكانك أيضا يا سيدى .

پامفورد : هذا لا يتفق مع التعليمات .

فلورنس : لقد فهمت ، اذن وجب على المرضى أن يقطعوا طعامهم بأصابعهم ويشربوا فى قبعاتهم الى أن تصدر اليك التعليمات .

پامفورد : وعلى كل حال فلن نمدهم بسكاكين وشوك أخرى ، وقد صرفت لهم تلك الأشياء ضمن لوازمهم ، وكان المفروض أن يأتوا بها وقت قدومهم الى المستشفى .

فلورنس : ولكنك تعلم كما أعلم أنهم تركوا كل حاجياتهم فى بلغاريا عندما تحرك الجيش الى القرم .

پامفورد : اذن يجب أن يستعيضوا عنها بغيرها من مركز قيادتهم .

فلورنس : ولكن كيف يمكنهم هذا وقد بعدوا عن قيادتهم آلاف الأميال ؟

پامفورد : لا يمكن أن تصرف مرة أخرى ، لأن هذا يخالف تعليمات وزارة الحربية .

فلورنس : مارأيك صراحة يا مستر بامفورد فى مثل هـذه التعليمات ؟

بامفورد : ليس من شأنى أن أنقد تعليمات وزارة الحربية.

فلورنس : لا ، ولكن من شأنك أن تفسرها بشىء من المنطق. لقد طلب الدكتور « ايمز » بالأمس مزيدا من الوقود لأن العنبر الذى يشرف عليه لا يقى من البرد ، ورفضت أنت ، فزودته أنا بالوقود ، وقد كان لديك منه الكثير .

بامفورد : لقد صرفت لعنبر الدكتور « ايمز » ما تسمح به التعليمات .

فلورنس : ولكن المكان أيها الرجل كان أشبه ببيت من الجليد ، وليس به ما يقيه من تقلبات الطقس ، وربما تسبب ذلك فى موت المرضى .

بامفورد : أنت ترين أنه ليس فى الامكان زيادة مقررات الوقود الا بأمر من المجلس، وأنا أعلم انه يصعب على السيدة وقد اعتادت تلبية كل رغباتها أن تدرك ضرورة التقيد بالتعليمات ، ولو انك كنت فى سلك الجندية لكان لزاما عليك أن تدركى هذا .

فلورنس : لا تقل تلك السخافات ، وان لى من التعليمات الخاصة بمرضاتى ما هو فى غاية الشدة ، ولكنه قد روعى فى وضعها أن تحفز الى القدرة على العمل ، وأن تصون الأرواح وليس لكى تشجع على الغباء وتفضى الى الموت .

وما الجيش فى أساسه الا حسن ادراك للامور .

بامفورد : اسمحى لى يا سيدتى أن أقول ان الجيش ليس على شىء من هذا ، وما هو الا طاعة عمياء .

فلورنس : لقد فهمت ، ويسعدنى أن أراك قد أدركت الفرق بين الوضعين .

بامفورد : كل ما أعرفه هو أن لدى أوامر . .

فلورنس : أرجو أن تكون معقولا فى تفكيرك يا مستر بامفورد ، ولقد أريتك فى هذه الحسابات كيف كانت امداداتنا هنا ذاتية ، وعلى نطاق واسع ، ولكنا يجب أن نجد منك عونا أحيانا . فى هذه اللحظة رست سفينتان محملتان بالجرحى ، وأريد لهم من المستشفى الملابس والبطاطين .

بامفورد : آسف يا سيدتى فلن تحصلى عليها ، ولماذا لا تواصلين الكفاية الذاتية ؟

فلورنس : لديك منها الكثير فى مخزنك .

بامفورد : ولكنى أقول يا سيدتى انه لم يؤذن لى بصرفها بعد ، ولن يعقد المجلس حتى الأسبوع القادم .

فلورنس : (صابرة) انى أعلم ما يواجهك من صعاب ، رغم علمى بسخافتها وما كنت لآتى اليك اذا كان فى امكانى الحصول عليها من المصادر المدنية ولكنى حاولت ولم أتمكن .

بامفورد : هذا مما يؤسف له ، وأرى أن ضابط الامدادات الحقير قد أصبح وفيه بعض النفع ، وأخشى أن أقول ان عليهم أن يكتفوا بما لديهم .

فلورنس : لا يا مستر بامفورد ، لن يكون هذا ، وأسألك أن تمدهم بهذه الأشياء لأنها ضرورية جدا .

بامفورد : آسف ، لا يمكننى .

فلورنس : فكر مرة أخرى فيما تقول .

بامفورد : وأنا أقول لك انى لا أقدر .

فلورنس : آمرك بتقديم هذه الأشياء .

بامفورد : لست مسئولا أمامك ولا أمام الجيش ، وأنا موظف من قبل الخزانة وأنت تعرفين التعليمات غيريها . يسرنى أن أطيع .

فلورنس : لن أغـير التعليمات ولكنى سأغير ضـابط الامدادات .

بامفورد : ها ، ها ، بودى أن أراك تفعلين هذا .

فلورنس : سترى .

بامفورد : (متضايقا) ليس هناك ما يبرر شكواك ولست أقوم الا بواجبى .

فلورنس : ان لم يصلنى ما أطلبه كاملا فى غضون ساعة ، فانى سأبعث الى الحكومة بما يفيد أنه لايسعنى الاستمرار فى مركزى اذا بقيت أنت فى مركزك.

بامفورد : ولكن مستر هربرت يعلم مركزى ، ورغما عن هذا ، ماذا فى وسع مستر هربرت أن يعمـل الآن ؟ انه ليس من رجال الحكومة .

فلورنس : لن أكتب الى مستر هربرت أبـدا ، ولكنى سأبرق الى لورد پلمرستون .

بامفورد : ليس فى مقدورك أن تفعلى هذا ..

فلورنس : ألست بقادرة ؟ سوف ترى .

بامفورد : ولكنى يا سيدتى — رب أسرة — فكرى فى زوجتى ، وأنا لا أقوم الا بواجبى .

فلورنس : وأنا أقوم بواجبى يا مستر بامفورد ، وهو أسمى من واجبك ، هو واجب نحو رجـال

يتألمون ، وفيهم المتزوجون أيضا يا مستر بامفورد .. فكر فى زوجاتهم .

بامفورد : انك تطلبين منى أن أخاطر بوظيفتى .

فلورنس : انى أطلب منك أن تكون آمنا من الفصل من وظيفتك ، ومن العار أمام الناس ، وانى أمهلك ساعة للتنفيذ .

بامفورد : ان ما تطلبينه كثير ، ألا يكفى مائة ؟ أعنى مائة من كل نوع . وأظن أن فى امكانى تدبير المائة دون تصريح من المجلس .

فلورنس : أريد العدد الذى بهذا الطلب كاملا ، أريد خمسمائة وتسعين وأريدها فى غضون ساعة .

(فترة سكون قصيرة)

بامفورد : يحسن أن تبعثى أحداً معى لتسلمها .

(يخرج)

سلينا : حسنا ما فعلت ... واننا فى حاجة لمزيد من البيض للتغذيات الاضافية ، والأونباشى « چونز » يقول ان بالمخازن بيضا لم يفحص بعد .

فلورنس : يمكننا أن نشترى البيض من«پيرا»يا«سلينا» ،

ويجب ألا تتحدى التعليمات الا اذا لم نجد غير هذا التحدى من وسيلة ، وسيكون المندوبون الصحيون هنا بعد الظهر ، فهل لديك قائمة بما على الممرضات من واجبات ؟

سلينا : نعم .

فلورنس : هل تقوم احداهن بواجبها فى أربعة عنابر ؟

سلينا : نعم ، هى « بيتس » .

فلورنس : هل هى الوحيدة ؟

سلينا : نعم .

فلورنس : اطلبيها .

سلينا : (تقف وتنادى عند الباب) : أيها الجندى — ادع الممرضة « بيتس » كى تحضر (وتعود الى مقعدها وتخاطب فلورنس) لماذا ؟ وما الخبر ؟

فلورنس : لو أردنا أن نقوم بعمل جدى فى هذه الحرب ، وبخاصة اذا كنا يا « سلينا » نريد أن نجعل النساء على قدم المساواة مع الرجال فى العمل، وجب علينا أن ننظم أنفسنا مثلهم .

سلينا : بطبيعة الحال ، — وماذا ؟

فلورنس : لقد أعطانى المفتش العام « كمنج » تلك القصاصة من الجريدة ، وأنت تعلمين مبلغ حبه لنا ، وله الشكر على ذلك . فى الجريدة كلمات هى محض افتراء وكذب ، فيها وصف للمرضى وهم يموتون نتيجة الاهمال وسوء العناية ، وليست من العدل ولا من الصدق فى شىء ، فالأطباء يأتون بالعجب بما فى متناولهم من معدات .

سلينا : نعم ، ولكن هذا النقص فى المؤن والمعدات ..

فلورنس : وماذا على الأطباء أن يفعلوه فى هذا ، ومع ذلك فانه من واجبى بحث هذا ، ولابد من اخراج هذه المرضة .

سلينا : ولكنها يا فلورنس تحاول أن تقوم بالمعاونة .

فلورنس : كل ما تقوم به هو أن تكون ألعوبة فى يد أعدائنا ، وهى تطيح بنا يا « سلينا » فلا تقوم لنا قائمة بعد — وفى وسع «كمنج» أن يوضح أن الموضوع بأكمله سخافة ، والواجب لكى نحافظ على سمعتنا أن نراعى الدقة فى غير مغالاة ، حتى اذا جابهنا المذنبين بالحقيقة

عجزوا عن دفع التهمة ، نريد الحقـائق — الحقائق يا « سلينا » وبهذه الطريقـة نكتسب معارك الاصلاح .

(يدخل ثلاثة رجال : أحدهم رجل ضخم فى زى رسمى ، وثانيهم « بامفورد » ضابط الامدادات ، وثالثهم اسـكتلندى طويل نحيل — ويتجه أولهم نحو مكتب فلورنس، انه الدكتور « كمنج » المفتش العام) .

كمنـج : لقد فهمت يا مس نيتنجيل أنك أمرت ضابط الامدادات أن يحل بعض المهمات المحزومة قبل فحصها رسميا .

فلورنس : نعم ، لقد كانت ضرورية للمستشفى .

كمنـج : لن أكون فى جانبك بتاتا ، ولا بصفتى عضوا فى المجلس ، ولا كمفتش عـام للمستشفيات ، وأحتج على ما بدر منك ، وبطبيعة الحال ، سأعزز ما جاء فى تقرير ضابط الامدادات لأن موقفه لا غبار عليه .

بامفورد : لقد حذرتك يا سيدتى أليس كذلك ؟

مكدونالد : (الاسكتلندى) وأنا سأذيع على الجمهور عن

طريق صحيفة التيمز أن تصرف مس نيتنجيل كان عين الصواب .

كمنج : لست أخشى شيئا مما قد تنشره فى التيمز يا مستر مكدونالد ، لا بما لى من الصفة الادارية ولا بكونى من رجال الطب .

فلورنس : عفوا سادتى ، لا أجد ضرورة لصياحكم فى وجودى .

كمنج : أود لو تفهمين يا مس نيتنجيل أنك تجاوزت حدود ما لك من نفوذ ، فأنت موكلة بالهيمنة على قسم التمريض النسائى ، وأراك اتخذت لنفسك سلطة السيطرة على المسئولين ، وسوف أرفع تقريرا بهذا .

فلورنس : يجب أن تفعل ما يمليه عليك ضميرك على أنه الصواب يا دكتور كمنج ، ولكن دعنى أنصحك قبل أن تبعث بهذا التقرير أن تستشير الضباط الأطباء الذين هم تحت رياستك ، وسوف تجد أن معظم امداداتهم حتى اليوم ، لم يكونوا ليحصلوا على شىء منها لو لم أكن قد فرضت سلطانى على ضابط الامدادات ، ولقد زودتهم

من مواردى ، ومن المبلغ الذى جمعه مستر مكدونالد عن طريق صحيفة التيمز .

مكدونالد : لقد أصبح الأمر خطيرا ، وطالما هممت بالنشر ولكن مس نيتنجيل كانت تمنعنى ، ولن يقيدنى أحد بعد اليوم ، فمصالح المرضى والجرحى قد ضحى بها من أجل تعليمات عفى عليها الزمان ، وما سمعت بشىء يندى له الجبين خجلا مثل هذا النقص الذى نراه فى البطاطين .

كمنـج : نعم ، ولكن ليس من شأن مس نيتنجيـل أن تصدر كل هذه الأشياء ، وأنا أعلم يا مس نيتنجيل أنك تريدين الخير ، ولكن هذا ليس فى دائرة عملك .

فلورنس : لقد فهمت ، اذن أنت تظن أن من الأفضل أن يموت الجرحى وفقا للتعليمات ، على أن يعيشوا اذا وجدوا العناية المرجوة ؟

كمنـج : لا .

فلورنس : وربما ظننت أنه طبقا للتعليمات يجب ألا يموتوا، وعلى هذا لا يمكن أن يموتوا .

كمنـج : لست أظن شيئا من هذا ؛ وتلك هى كل المتاعب

التى تنجم عن اقحام السيدات فى الخـدمات العامة ، وهن يأتين بملاحظات كثيرة لا تمت للموضوع بصلة كلما حاولنا أن نجعلهن يدركن كيف يسير العمل ، ورجائى الآن أن تدركى ..

فلورنس : لن أناقشك أكثر من هذا ، وعملى الذى بـعثت من أجله الى هنا ، هو العناية بالمرضى والجرحى ، ولم يكن القصد من هذا مقصورا على اعطائهم الدواء ، وجعل الوسادات ليّنة ، ولكن المراد منه هو التـأكد من وجود القـدر الكافى من الضروريات ولوازم الراحة ، وسأرى أن يتم هذا العمل بمنتهى الجدارة أو أقف على الأسباب المانعة .

وأنت يا مستر بامفورد ، هل سلمت البطاطين ؟

بامفورد : لا يا سيدتى .

فلورنس : اذن سأبعث بهذه البرقية فى غضون خمس عشرة دقيقـة الى لورد پلمرستون ، وسـأعود الى انجلترا وأنشر ما صادفنى فى تجاريبى هنا ، وان بقى أحد الرؤساء فى مركزه فلن يكون هذا الخطأ من جانبى .

مكدونالد : وسأرى أنا من جانبى أن تكون صحيفة التيمز فى جانبها قلبا وقالبا .

كمنج : ان حملات الصحف على المسئولين ليست ذات بال يا مستر مكدونالد ، ورجائى الا يدور بخلدك أن شيئا مما تقوله قد يخيفنا أو يغير من الأمر شيئا ، ونحن قد اعتدنا اساءة الظن بنا .. ولكن المرء .. بطبيعة الحال يا مستر بامفورد .. يرى أن تكون السيدة موضع التقدير منا ..

فلورنس : لا تتوار خلف السيدات لتنال عطفا ، وانى أقول ان هذا واجب الأداء ، وأنت تعلم ماذا أنا فاعلة اذا لم يتم .

بامفورد : حسنا ، وليس هناك ما يدعو لكى تكونى عنيفة يا سيدتى .

فلورنس : عنيفة ؟

بامفورد : ان الأشياء وحقيقة الأمر فى طريقها اليك .

فلورنس : اذن أجدر بك أن تذهب مسرعا لاحضارها .

(بامفورد ينظر فى يأس الى كمنج ثم يخرج) .

ومن المؤكد يا دكتور كمنج أنك ترى أن ما هو ضرورى للمستشفى يجب أن يجيز عدم التقيد بالتعليمات .

كمنج : نعم وأرى الا يتكرر ذلك أيضا .

فلورنس : ولكنه سيتكرر يا دكتور « كمنج » وسيتكرر دائما ، واعلم أن الحروب لها طريقتها فى قلب التعليمات رأسا على عقب ، ورجائى يا مستر مكدونالد بوجه خاص ، الا تذكر شيئا من هذا فى صحيفتك ، لأن الحكومة جادة فى انجاز الأعمال ، وليس من العدل أن تحمل عليها بينما هى تحاول تحسين الأمور .

سلينا : معذرة ، ان الدكتور « سذرلاند » هنا وهو فى حجرة الانتظار .

فلورنس : انه رئيس اللجنة الصحية ، وأرجو أن تبقيا هنا وتقابلاه .. نعم دعيه يدخل يا سلينا .

كمنج : حسنا ، وأظن أن من الواجب أن نتجاوز عن بعض الشيء للسيدات ، واعلمى أنك لو كنت رجلا لقدمت تقريرا عنك .

فلورنس : سيأتى اليوم يا دكتور « كمنج » الذى يحكم

فيه الرجال على النساء بأعمالهن وليس بجنسهن.

سلينا : « دكتور سذرلاند » .

(يدخل الدكتور سذرلاند من حجرة الانتظار ، وهو اسكتلندى جاف من أهالى « أبردين » فى الثامنة والأربعين – وتخرج سلينا ثانية) .

سذرلاند : هل أنت مس نيتنجيل ؟

فلورنس : نعم .

سذرلاند : أنا رئيس اللجنة الصحية ، ومعى الدكتور « جاڤن » ومستر « رولنسن » .

وانى أحكم من الرائحة التى تنبعث من هذا المبنى أننا لم نحضر قبل الأوان .

فلورنس : مستر « مكدونالد » محرر صحيفة التيمز — ، والدكتور « كمنج » مفتش عام المستشفيات باسكوتارى .

سذرلاند : (مخاطبا كمنج) ألم تكن فى ادنبره عام ٣٢ ؟ لقد تذكرتك عندما رأيتك ، وانه لجميل أن أرى أخا اسكتلنديا — هذا المكان ليس عنوانا

للنظافة ، فما الذى دعاك يا دكتور لاختياره ليكون مستشفى ؟

كمنج : لم يكن أمامنا غير هذا المكان .

سندرلاند : اذا كان الأمر كذلك فقد كان من الأحرى الا تجدوا مكانا فتضطروا لاقامة الخيام والأكواخ وهى لا بأس بها — هل رأيت تخطيط هذا المبنى ؟

كمنج : لا ، لم أره .

سندرلاند : يجب دائما رؤية رسومات المقاول للبناء ، وانى أحكم الآن من تخطيط هذا المكان أنه لم يزود كما يجب بالوسائل الصحية الحديثة ، وأظن أن من الواجب اعادة تأسيس المجارى بأكملها .

كمنج : ومن أين تظننا نأتى بالعمال ؟

سندرلاند : لست أدرى ، ولا يهمنى أن أعلم ، وتفكيرى يتجه الى أن هذا واجب عليك عمله الآن .

كمنج : واجب ؟ ومن يقول هذا ؟

سندرلاند : أنا الذى أقوله ، واعلم أن لى كامل التفويض من لورد بلمرستون ، وسلطانى للتصرف غير منقوص .

فلورنس : اذن أرجو أن تذهب توا وتمر بكل العنابر ، وسأبعث باحدى الأخوات الممرضات معك لأنى لا أريد أن أقـول لك آرائى الى أن تكوّن آراءك ، وقد يذهب معك الدكتور « كمنج » .

سندرلاند : انك سريعة البت فى الأمور يا مس نيتنجيل .. نعم قد أقوم بهـذا التفتيش .. هـل لديك يا دكتور « كمنج » متسع من الوقت لتصحبنى؟

كمنـج : أذهب معك اذا رغبت ، ولكن من العبث أن تتكلم بشأن اعادة البناء لأن المبنى بالحالة التى هو عليها لا عيب فيه مطلقا .

سندرلاند : حسـنا ، ولكن الحكم فى ذلك متروك لى ، وسألقى نظرة وأرى بنفسى .

(تدخل سلينا من العنبر ومن ورائهـا الممرضة بيتس) .

سـلينا : لقد أردت يا فلورنس أن ترى هذه الممرضة وها هى هنا .

فلورنس : حسنا .. ألا تنتظرين لحظة ؟ وأنت يا دكتور سذرلاند ، هل تسمح بالعودة

هنا لتدلى لى بآرائك قبل سفرك ؟ وهل أعلم أين ستكون اقامتك ؟

سندرلاند : نعم ، سأعود وأخبرك ، أما المكان الذى سنقيم فيه فلست متأكدا منه ، وقد يكون فى أحد فنادق القسطنطينية الجميلة ولكن هذا قد لا يجدى ، لأنى جئت لأقيم هنا وأشرف على الأعمال .

فلورنس : اذن أنتظر عودتك بعد نصف ساعة أو ما يقرب من هذا .

سندرلاند : نعم بعد نصف ساعة .

(سندرلاند وكمنج يخرجان) .

فلورنس : هل يتسع وقتك يا مستر مكدونالد لكى تؤدى لنا عملا هذه الليلة ؟

مكدونالد : نعم .

فلورنس : ان ما عندى من الدقيق قليل جدا ولن يسمحوا لنا بزيادة ما ، فهل تذهب الى المدينة وتشترى لنا كل ما تستطيع شراءه منه ؟

مكدونالد : نعم ، وهل هناك من طلب آخر ؟

فلورنس : هل من شىء آخر يا سلينا ؟

سلينا : نريد مزيدا من القمصان ، وشموعا وصابونا ، وابرا وخيطا .

مكدونالد : وماذا ؟

فلورنس : وشباشب ، ورجائى أن تكون مما يبعث الدفء ولتكن ألف زوج ان قدرت .

مكدونالد : نعم ، وهل هذا كل ما تردن ؟

فلورنس : نعم وشكرا .

وأنت يا « بيتس » ، انك تعرفين الأسس التى نسير عليها ، أليس كذلك ؟

الممرضة : نعم ، بطبيعة الحال يا سيدتى .

فلورنس : أنت تعلمين أنه محظور علينا جميعا الاتصال بالصحف .

الممرضة : أى نعم بطبيعة الحال يا سيدتى .

فلورنس : هل كتبت شيئا ظهر فى الصحف ؟

الممرضة : لا يا سيدتى .

فلورنس : لا شىء مطلقا ؟

الممرضة : لا يا سيدتى .

فلورنس : لقد فهمت — انك تعملين فى العنابر ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧ أليس كذلك ؟

المرضة : نعم يا سيدتى .

فلورنس : هل علمت أن أحدا مات جوعا بهذا المستشفى ؟

المرضة : لا يا سيدتى .

فلورنس : أو مات نتيجة الاهمال أو لنقص فى العناية الطبية ؟

(تسكت المرضة) .

انظرى الى هذا ، هل رأيت هذه الرسالة من قبل ؟ انى واثقة أنك لن تكذبى .. هل رأيتيها من قبل ؟

المرضة : نعم .

فلورنس : وهل كتبتيها ؟

المرضة : أقسم انى لم أرسل بها الى الصحيفة ؟

فلورنس : ليس هذا هو بيت القصيد ، لقد كتبتها .

المرضة : نعم .

فلورنس : وهل بلغك أنها ظهرت فى الصحيفة ؟

المرضة : نعم .

فلورنس : احزمى متاعك واستعدى للرحيل غدا صباحا .

المرضة : دعينى أبقى يا مس نيتنجيل ، أستحلفك بالله أن تبقينى .

فلورنس : هذا مستحيل .

الممرضة : ألا تغفرين لى ؟

فلورنس : وما دخل الغفران فى هذا ؟ وليس هناك نية مبيتة ضدك ، فأنا هنا لأدير مستشفى ، ولا يمكننى أن أقوم بهذا العمل ومعى أناس لا أثق فيهم ، ولقد كذبت علىّ وستكذبين مرة أخرى ، وليست هذه غلطة منك ، ولكنها طبيعتك .

الممرضة : لن أكذب مرة ثانية ما دمت حية .

فلورنس : آمل هذا .

سلينا : دعيها تبقى يا فلورنس .

فلورنس : سترحل السفينة باكر صباحا ، ويجب أن تكونى مستعدة للذهاب فيها ، ولا شىء غير هذا .

(تستدير الممرضة وتخرج فى سكون)

سلينا : هل هذا هو القول الفصل ؟

فلورنس : ماذا ؟ أراك تعنين الممرضة ، نعم انه القول الفصل يا سلينا ، ويجب أن يعلم الآخرون سبب فصلها ، وبذلك لن تتكرر المأساة مرة أخرى .

سلينا : لقد فهمت يا فلورنس ، وماذا تناولت من الطعام اليوم ؟

فلورنس : طعام الافطار .

سلينا : أنا أعلم هذا — وهو بيضة وكسرة خبز بالزبد .

فلورنس : نعم ، وليس لدينا وقت ، وأمامنا رسائل نريد كتابتها .

سلينا : سأحضر لك بعض البسكوت والشاى ولابد من تناولها لأنك تقتلين نفسك ، ولا أعتقد أنك تناولت وجبة كاملة منذ قدومنا ، ولن يؤدى هذا لشيء غير المرض .

فلورنس : لا تقلقى من أجلى ، ماذا تم فى الترتيبات الخاصة بمرضى الكوليرا ؟ انى أريد وفرة من الماء الساخن وبطانيات أكثر .

سلينا : نعم ، لقد أعددتها ، وها هو ذا الشاى فاشربيه .

فلورنس : حالا . (يدخل الأونباشى چونز) نعم ؟

الأونباشى : لقد حملوا من السفن آخر دفعة وصلت من الجرحى يا سيدتى .

فلورنس : لقد تأخروا ، وسيخيم الظلام قبل وصولهم ، وهل الممرضات على استعداد بالعنابر يا سلينا ؟

سلينا : نعم .

فلورنس : (تنادى) : مسز « وليمز » ، ان آخر دفعة فى طريقها الينا ، فهل أعددت المشروبات الساخنة ؟

مسز وليمز : كل شىء قد أعدّ يا سيدتى .

الأونباشى : لقد كان أحدهم يسأل عنك يا سيدتى .

فلورنس : حسنا ، سأذهب الى الباب وألاحظ دخولهم .

سلينا : لا تذهبى يا فلورنس لأنك فى منتهى التعب .

فلورنس : لا ، ولست فى مثل ما هم عليه من التعب ، ولا يسعنى أن أخيّب رجاءهم .

سلينا : متى يحتمل وصولهم ؟

الأونباشى : لقد وصلوا الى الأبواب الآن يا سيدتى .

فلورنس : حسنا سأكون هناك .

سلينا : اذن فاشربى الشاى قبل مجيئهم .

فلورنس : لا ، ليس هذا مما يشغل بالى الآن ، ويجب أن أرى هؤلاء المساكين وهم ينقلون .

سلينا : جرعة واحدة يا عزيزتى .

فلورنس : أوه حسنا .. أرى أنك أضفت اليه بعض البراندى يا سلينا .

سلينا : نعم ، لأنك فى حاجة اليه .

فلورنس : انه للمرضى وليس للأصحاء ، وهو نفيس جدا

وأخرى ألا يضيع سدى ، فاشربيه أنت لأنك متعبة أيضا .

سلينا : أنا بخير وما بى شىء .

فلورنس : افعلى ما آمرك به يا سلينا .

(سلينا تشرب الشاى وتذهب مع فلورنس، ويقفان معا يرقبان الجرحى وهم يحملون)

سلينا : يا لهم من بؤساء !

فلورنس : الهى ، ما أبأس حالهم ، انهم يرتدون أثمالا .. اكتبى يا سلينا مذكرة بزيادة فى الملابس ، — وها هم آخرون مرضى بالكوليرا ، وآمل أن يكون الماء الساخن قد أعدّ بوفرة كما تكون البطاطين قد زيدت .

الأونباشى : ها هم يأتون بذلك الرجل يا سيدتى .

فلورنس : نعم ، انهم جميعا قد عضّهم الجليد بنابه ، .. ان هذا يقض من مضجعى ، قف ، هل هذا هو الرجل ؟

جونز : نعم يا سيدتى .

فلورنس : ايت به هنا .

الأونباشى : هلموا فتيتى من هذا الطريق .

(يدخلون وهم يحملون المحفة « النقالة »)

فلورنس : دع الرجال يخرجون .

الأونباشي : كفى هذا أيها الفتية .

تريفاين : (الرجل الذى على المحفة ويقول باعيـاء) : فلورنس .. هل أنت فلورنس ؟

فلورنس : هنرى ، ولماذا فعلت هذا ؟

تريفاين : ظننت أنه ما دام هـذا فى مقدورك ، فهو فى مقدورى .

فلورنس : لقد جرحوك يا عزيزى .

تريفاين : لقد أجهزوا علىّ يا فلورنس ، وقد عملت على أن أبقى حيّا فوق تلك السفينة المزعجة لأسعد برؤيتك لدقائق قليلة قبل .. يا الهى .. اعملى يا فلورنس على تحسين الحالة فى تلك السفن ، اذ لا يمكنك أن تتصورى ما فيها من أهوال وما بها من أقذار ، لقد أصبحنا فيها كعجينة مزجت بالدماء وبالأقذار ، وسـحبونا جميعا ونحن رقود على سطح السفينة فاحتكّت به أجسامنا ، وكم قاسينا ، ولم يكن هذا بذى بال من ناحيتى ، لأنه كان جزءا من .. ولكن يجب ألاّ يقاسى الجرحى هذا العذاب .

(وتخور قواه فجأة)

فلورنس : نعم ، نعم ، أنا أعلم أن الحالة سيئة ، ولكنا نعمل على الاصلاح شيئا فشيئا ، وسوف أولى السفن اهتمامى يا عزيزى ، والآن دعنى أرى جراحك .

تريمين : لا فائدة البتة من هذا ، يالها من رحلة قاسية فى تلك السفن ، لقد انتهيت .

فلورنس : لا ، لم تنته بعد يا هنرى .
وأنت يا سلينا أسرعى باحضـــار الطبيب ، احضرى « ايمز » .
(تسرع سلينا بالخروج)
لن أغير الضمادات حتى يأتى الطبيب .

تريمين : لا تفعلى ذلك أبدا يا فلورنس ، وما جئت هنا كى أربط ، وانما جئت لأراك وأقول وداعا .

فلورنس : يجب ألا تستسلم يا عزيزى .

تريمين : ليس بى قوة لأتباحث معك .

فلورنس : ولا للحديث كذلك ، فاهدأ يا حبيبى .

تريمين : لقد خارت قواى — افحصى هذا بنفسك — هل تذكرين يا فلورنس تلك الليلة عندما كنا بجانب النافورة ؟

فلورنس : يا عزيزى لا تتكلم — لا تتكلم .

تريجاين : هل أسأل .. سؤالا ؟

فلورنس : سل .. ولكن يا عزيزى لا تجهد نفسك .

تريجاين : هل شعرت بحبى حقا فى تلك الليلة ؟

فلورنس : بكل اخلاص وسأظل أحبك ، وأشتاق اليك الى آخر حياتى التعسة .

تريجاين : أحقا هذا ؟ ذلك هو كل ما أردت أن أعرفه .

(« سلينا » تعود)

فلورنس : هل هو آت ؟

سلينا : لقد أخبرته .

فلورنس : سيكون الطبيب هنا بعد دقيقة يا هنرى ، ولابد الآن أن أدرج اسمك فى سجل المستشفى ، فما مركزك .. هل أنت ضابط ؟

تريجاين : كيف أكون ضابطا يا فلورنس ؟ لقد تطوعت جنديا .. ورقونى أونباشيا بعد موقعة « انكرمان » .

فلورنس : وفى أى وحدة أنت ؟

تريجاين : غرقة المدفعية .

فلورنس : باسمك الحقيقى « هنرى » ؟

تريجاين : ولم لا ؟ ولا عار فى هذا ، هل هناك عار ؟

فلورنس : لا تقل هذا يا عزيزى . والآن قد أدرج اسمك بالسجل ، وأصبحت لك بطاقة ، وستكون فى عنبرى الخاص .

تريماين : (يرتفع صوته فجأة) : فلورنس ، أعتقد أنى سأتحسن ، ولقد شعرت فجأة أنى أقوى كثيرا .

فلورنس : نعم يا عـزيزى ولكنك لن تكون كذلك اذا تكلمت .

(وتهمس الى سلينا وهى قلقة) : أخشى أن تكون هـذه هى النهاية ، اسرعى يا سلينا ، ألا تستنهضين هذا الطبيب ؟

سـلينا : (همسا) : ولكنهم لن يتركوا حـالات فيها الرجاء ليأتوا الى من يحتضرون يا عزيزتى ، وهل يكون هذا ممكنا ؟

فلورنس : ولكن بالله عليك يا سلينا ، استدعى سذرلاند ، هذا الذى حضر حديثا ، وستجدينه فى مكان ما بالمستشفى ، وهو غير مكلف بعمل خاص . اسرعى بحق السماء .

(تخرج سلينا مسرعة)

تريماين : الظلام حالك ..

فلورنس : حالك يا عزيزى ، وسنأتى لك بالنور سريعا .

(تحاول أن تقوى من نفسيته وتمد فيه من روحها ، كما تحاول فى نفس الوقت أن تقنع نفسها) .

لقد انتهى الآن كل شىء يا هنرى ، ولم نعد نجزع خوفا على سلامتك يا عزيزى ، وعليك أن ترعى صحتك ، وسأحضر لكى أعنى بك عندما تزول الأزمة ، وسأقوم بكل ما تطلب يا عـزيزى اذا بقيت حيّـا ولم تمت لتتركنى وحيـدة .

يجب أن تعمل لاسـتعادة قوتك يا هنرى ، وسوف نجوب البلاد ولا تفارق بعضنا أبدا ، وسأكون لك عبدة لما لحق بك من أجلى ، احفظه يا الهى .

(فترة سكون قصيرة ، ويفتح عينيه فجأة)

تريفاين : (بصوت عجيب كأنه يأتى من بعيد) : فلورنس، هل أنت فلورنس ؟ أين أنا ؟؟

فلورنس : نعم ، أنت معى .

تريفاين : الظلام يزداد — ويزداد .

فلورنس : هل تريد .. القس ؟؟

تريبلين : لا ، أنا بخير ، أكرمك الله يا فلورنس .

(يندفع الدم فجأة الى شفتيه ويميل الى الوراء ويموت)

فلورنس : هنرى .. بالله عليك كلمنى (تتمالك نفسها وتقف) : عملى ، يجب أن أؤدى عملى ، .. وسنموت جميعا ، وما الموت الا تحوّل من حالة الى أخرى ، ولا فناء للروح فهى خالدة ..

(يفتح باب العنبر فجأة ويدخل الدكتور سندرلاند مسرعا)

سندرلاند : وصلتنى رسالة فهل من شىء تريدينه ؟

فلورنس : لقد سبق السيف ، لقد مات .

سندرلاند : نعم لقد مات (وقد نظر من تحت الأغطية) يا للسموات .. هذه الجراح كانت كفيلة بالقضاء عليه من مدة .

(قالها وهو يلتفت الى فلورنس وقد تأثر عند رؤية وجهها الحزين) .

سندرلاند : هل كان صديقا لك ؟

(تنحنى رأسها وهى صامتة) .

انه مصير أولاد حواء جميعا ، ولكنك سيدة

وقد بلغت من السمو شأنا عظيما ، فلا تجعلى هذا يتغلّب عليك ، وفكّرى فى الآخرين الذين هم بالعنابر هناك .

(تحنى رأسها بطريقة آلية)

(ويدخل الأونبـــاشى جونز من العنبر مسرعا) .

الأونباشى : مس نيتنجيل ، عملية بتر سريعة ، ويســأل الدكتور « ايمز » ان كان فى الامكان مجيئك لمعاونته .

فلورنس : سأحضر .

(جونز يؤدى التحية ويسرع عائدا) .

سذرلاند : (بحنان) يا لك من فتاة شجاعة .

(تحمل مصباحها بيدها وتتحرك ببطء نحــو الباب ، ثم تلتفت عند الباب وقد رفعت المصباح وتقول) : وداعا يا حبيبى (وتخرج متشجعة) .

(تنزل الســـتار)

الفصل الثالث

المنظر الأول

حجرة بشارع أولد برلنجتن سنة ١٨٦١

مضى ما يقرب من سبع سنوات منذ أن أبحرت فلورنس نيتنجيل بممرضاتها تقصد القرم ، كما كان قد مضى ما يزيد عن ست سنوات على وفاة هنرى تريماين ، وخمس سنوات على نهاية الحرب • وكانت كلها سنوات متواصلة العمل كثيرة المشاق •

وبلغت «فلورنس» الواحدة والأربعين ، وأصبحت عقليتها أكثر ما تكون نشاطا ونضجا •

غير أن متاعب الحرب أضعفت من صحتها الى درجة جعلت الأمل فى حياتها أحيانا مفقودا •

على أنها كانت رغم هذا أعظم شخصية آمرة بانجلترا ، وأصبح الوزراء طوع ارادتها ، والملكة تعلن تقديرها لها صراحة حيث تقول « وددت لو أنها كانت فى وزارة الحربية » •

وكان لورد پلمرستون ، وهو الآن فى السابعة والسبعين ، ورئيس للوزارة للمرة الثانية يقف الى جانبها ، ولايقعد عن مساندتها فى انجاز مشاريعها بكل ما أوتى من نفوذ ، وهو ذلك الرجل الذى كان معبود البلاد وأعظم معاصريه اعتدادا بالرأى •

وذات يوم صاف فى مستهل الصيف كانت فلورنس وهى التى فرضت ارادتها على الحكومة طوال خمس سنوات دام فيها

القتال ، قد أوشكت أن تصل الى نتيجة حاسمة فى تنفيذ مشاريعها وضمان استمرارها ، بما قامت به من اصـــلاح شامل لوزارة الحربية .

ولم يكن قد بقى على انعقاد جلسة خبرائها غير دقائق قليلة كى يعرضوا فيها على « سدنى هربرت » الخطوة التالية وترى فلورنس وهى فى تشاور مع الدكتور سندرلاند ، وهو ذلك الرجـل الذى لم يفارقها منذ حرب القرم ، ويعمل مستشارا فنيا لها ـ وتراهما وقد فرغا من جمع ربطة كبيرة من الأوراق .

فلورنس : تامّة ! ولا ســبيل الى التساؤل فيها ، ولم يبق الاّ « سدنى » ليدعمها بنفوذه ، وبذلك يتم كل شىء .

سندرلاند : (وهو فى شك) .. نعم .

فلورنس : ماذا أيها الاسكتلندى ؟ أتريد أن توحى بأن « سدنى » سيتخلى عنا ؟

سندرلاند : ما قصدت هذا ، ولكنى قصدت أنه ضعف جسمانيا ، وأنه لابد من وجـود سبب قوى لذهابه لمجلس اللوردات .

فلورنس : انه لم يدخل مجلس اللوردات الاّ ليتم هــذا العمل ، وليس للتخلى عنه . بعد ستة شهور ..

سندرلاند : وكم من أشياء قد تحدث فى الستة الشهور !!

(تدخل خادمة) .

الخـادمة : « ليدى هربرت » تريد مقابلتك يا سيدتى .

فلورنس : ليدى هربرت ، أتعنين لورد هربرت ، أليس كذلك ؟

الخادمة : لا يا سيدتى ، أعنى ليدى هربرت .

فلورنس : دعيها تدخل بالطبع .

ما هذا أيها الاسكتلندى ؟ انها لم تأت لترانى منذ ستة شهور ، انها تظن أن لى .. تأثيرا كبيرا جدا ، وهل تظن .. أنها تحاول أن تتدخل ؟ (وهى عابسة) : أولى لها ألاّ تتدخل .

سندرلاند : لا أريد أن أقلقك بظنونى ، ولعلها جاءت كصديقة ، وقد كنتما صديقتين . أليس كذلك ؟

فلورنس : انى أسائل نفسى هذا السؤال ! لقد أوفد بعضهم فى غضون الحرب جماعة أخرى من الممرضات بعد أسبوعين من وصولى ، وأمروهن أن يرفعن تقاريرهن الى « كمنج » وهو ألدّ خصومى ، ولا يرفعنها الىّ رغم أنهم أقامونى مشرفة ، وكم ظننت أن تلك الهفوة الصغيرة هى من وحى .. أحد الأصدقاء .

سندرلاند : لا أريد أن تشغلى تفكيرك بمثل هذه السخافات ، ولقد عاونك الرجل جاهدا كما فعلت أنا .

فلورنس : انه متواضع ولا عيب فيه ما دام معى ، ولكنه ضعيف ! وهو دائما عرضة للمؤثرات ، على أنى لست أعرف سببا لقلقى .

(تدخل الخادمة)

الخادمة : ليدى هربرت يا سيدتى .

(تدخل اليزابث هربرت ، ولم تكن الأيام قد غيرت منها فبدت وهى فى الخامسة والثلاثين سيدة لطيفة جدا) .

اليزابيث : حبيبتى فلورنس ..

فلورنس : أهلا اليزابث ، كيف حالك ؟

اليزابيث : أنا متضايقة ، ألا تعرفين ؟ أنا فى ضيق من الموسم وما أشبه ، ولكنى سعيدة جدا لرؤيتك يا عزيزتى .

فلورنس : أظنك تعرفين الدكتور سذرلاند ؟

اليزابيث : نعم أعرف الدكتور سذرلاند بطبيعة الحال ، تشرفنا ؟ أظنك لم تذهبى الى الأوبرا يا فلورنس أمس ؟ طبعا لا ، لأنك عاقلة ولا تذهبين الى الأوبرا ، كما أنك لا ترهقين نفسك بالاجتماعات لرجاحة عقلك ولكنك تعرفين أن هذا من واجب الوزراء .

فلورنس : نعم يا اليزابيث ، وهل أنت فى طريقك الآن الى حفل ؟

اليزابيث : لا ، لا يا عزيزتى ، لا ، لقد كان الموسم مرهقا لنا طوال هذا العام ، وسأذهب الى « سپا » حالا ، هل تعرفين « سپا » .. بألمانيا ؟

فلورنس : نعم أعرفها .

اليزابيث : لقد أغريت « سدنى » بالذهاب معى .

فلورنس : متى ؟

اليزابيث : بعد أيام قلائل .

فلورنس : وهل أرسلك لتقولى لى هذا ؟

اليزابيث : ماذا تعنين يا فلورنس ؟

سدرلاند : (واجما) يا الهى !! لم أتمم تقرير هذا المساء ، ومعذرة فلن أتأخر .

(يسير نحو الباب ويخرج)

اليزابيث : (تنظر حواليها لتتأكد أنهما بمفردهما) : حسنا ، هذا أفضل وسنتمكن من الكلام بصراحة .

فلورنس : انى أتكلم دائما بصراحة ولكنك لم تجيبى على سؤالى .

اليزابيث : وهل أنا فى حاجة لأجيب على أسئلة خاصة بزوجى ؟

فلورنس : ما دمت قد أتيت بخبر ، فمن حقى أن أعرف مصدره .

اليزابيث : « سدنى » منصاع لأوامر الطبيب .

فلورنس : أوامر الطبيب ؟

اليزابيث : لقد استقال من الوزارة .

فلورنس : (سكتت برهة ثم قالت فى هدوء) : وهل تركك لتقولى لى هذا ؟

اليزابيث : انك تنسين أنى زوجته ؟

فلورنس : ومتى حدث هذا ؟ لقد كنا فى انتظاره هذا الصباح ، هل ترين هذه الكومة من الأوراق والكتب ؟ هذا هو ما أعددناه له ، والفخر عائد اليه جميعه ، واصلاح الجيش منسوب اليه بأكمله ، وقد قمنا به كله هنا ، دون ذكر الأسماء ، ونحن مسرورون وعن طيب خاطر . ولقد قرأت الصحف فوجدتها تصفه بأنه أعظم وزير للحرب فى الوقت الحاضر . وكنا نحلم بأنه سيكون خليفة پلمرستون فى رياسة الحكم، وبأننا سنجعله يرتفع الى أعلى مركز بالدولة ،

وبأن يكون زعيمنا ورئيسنا وما كان النصر الكامل ليحتاج غير مجهود واحد ، واحد ولا غير ثم يستريح بعد ذلك (وفى مرارة) وأراك تحدثيننى عن أوامر الطبيب .

لقد مكثت تحت أوامر الطبيب سبع سنوات ، وقد قال لى « سذرلاند » كذلك أن العمل يقتلنى ، ولكنى ظللت فى مكانى ، وها أنا هنا أشتغل صباحا وظهرا وليلا ، مع أنى سيدة .

والآن تقولين لى ان الزعيم الذى نفخر بخدمته يتنحى عن العمل وهو قاب قوسين أو أدنى من النصر ، وكأنه تلميذ جبان تقاعس وتخاذل قبل أن يصل الى نهاية السابق .

اليزابيث : ليس من حقك أن تقولى هذا ، انه مضطر الى التخلى عن العمل لأن العمل يقتله .

فلورنس : وعلى فرض أنه يقتله أو يقتلنى أو يقتلك أو يقتل أى واحد منا ؟ فماذا يهم هذا لو قورن بالنتائج ؟ ألم يكن من الأفضل أن نموت وقد حققنا غرضا ساميا من أن نعرضه للخطر ونوليه ظهرنا فى آخر دقيقة بحجة المرض ؟

ألا تعلمين أنه كان الأجدر ألا يبدأ بالعمل بتاتا على أن نبدأ فيه ثم نتركه ؟ ومن ذا الذى سيدافع من أجله الآن وهو مقرون باسم « سدنى » ؟ وأنت أدرى كيف يجب أن يكون الرجال .

اليزابيث : أنا أعرف كيف تكون النساء ، والى أى حد يكون مدى تدخلهن وما هذا التطاحن ؟ وعلام يكون ؟

فلورنس : انى أقاتل من أجل الرجال الذين ماتوا فى الحرب بين ذراعىّ .

اليزابيث : آه ، الحرب ، لقد انتهت الحرب .

فلورنس : نعم ، حتى تقوم حرب أخرى .

اليزابيث : حبيبتى فلورنس ، ان الناس لا يهتمون بالحرب الآن .

فلورنس : وهذا هو السبب الذى أناضل من أجله يا اليزابث ، لقد نسى الجميع الحرب، أما أنا فلا، وسأظل أجاهد دفاعا عن الثقة التى وضعها الموتى فى عنقى ، وحتى لا تكون عدم الكفاية والرسميات الجامدة سببا فى تعذيب أو قتل

الجنـدى العادى ذلك الرجل الأمين ، الذى لا يشكو وهو مثخن بالجراح .

اليزابيث : وهل تظنين انك تدافعين عن هذا ؟ لا ، ليس من أجل هذا تدافعين ، ولكنك تدافعين لاشباع كبريائك ، ذلك الغرور الذى من أجله يضحى بزوجى والذى كان سببا فى موت هنرى تريماين

فلورنس : وماذا تعرفين أنت عن « هارى تريماين » ؟

اليزابيث : ألم يكن أحد هؤلاء الجرحى المخلصين الذين لا يشكون ، والذين ماتوا بين ذراعيك ؟

فلورنس : وهل أنبأك « سدنى » بهذا ؟ كان من اللازم ان اخمن ذلك .

اليزابيث : لقد جاء الوقت يا فلورنس الذى تعلمين فيـه الحقيقة ، ان فيك رغبة جنونية للسيطرة ، واذا لم تأت الأمور وفق أهوائك ثرت غاضبة ، وليس هذا من الحكمة فى شىء دعى « سدنى » يستعيد صحته ، وربما أمكنه بعد ذلك أن يتابع الأمر .

فلورنس : يتابع الأمر ! وكيف يتأتى له أن يستعيد نفوذه بعد أن هرب — مريضا — من موظفيه الدائمين؟

ألا ترين يا اليزابث أنه خيب ظنهم جميعا وهو قاب قوسين أو أدنى من النجاح ؟ ولماذا لا يتعهد هذا العمل حتى ينتهى ثم يتركه اذا كانت تلك رغبتك ؟

اليزابيث : لأنه استقال ، ولقد قلت لك هذا ، فهو لم يعد وزيرا .

فلورنس : لقد أغريته كى يفعل هذا .

اليزابيث : نعم .

فلورنس : ودون مراعاة لعمله .

اليزابيث : على النقيض من هذا ، ولكنى عزمت عزما صادقا ألا يكون عمله مفضلا على صحته ، وأنا يستهوينى مركز « سدنى » ، ولكن حياة زوجى تستهوينى أكثر من هذا .

فلورنس : وهل قبل بلمرستون استقالته ؟ اذ ربما يمكن تدارك الأمر . .

اليزابيث : فلورنس ، لا فائدة من التدخل ، ويظهر أنك تظنين انه على الرغم من وعده لى ، فأنت لا زلت قادرة على أن تبعديه عنى من أجل عملك ، اذن — حاولى وخذيه .

فلورنس : لا ، أنت على حق ، ليست هناك فائدة من ذلك، وليست عندى النية لابعاده عنك ، وعملى أعظم من أن يوكل الى ضـــعيف وآمل أن تجدى طقسا جميلا بألمانيا يا اليزابث . وعند عودتكما، اذا قدر لسدنى أن يدخل مجلس اللوردات ثانية فلا يضن بكلمة أو كلمتين يعضد بهمـــا الأشياء التى نؤمن بها ووداعا (وتمد يدها) .

اليزابيث : (تتنـــاول يدها) ولكنك تعلمين يا عزيزتى فلورنس كم أنا فخورة بك ومعجبة ، غير أنى أكثر اعجابا بسدنى ، ولا أتحمل أن أراه ينهار ، فهل لك اعتراض ؟

(تخرج الخادمة)

فلورنس : وما فائدة الاعتراض ؟

نعم ؟

الخادمة : « لورد هربرت » .

فلورنس : يدخل فى الحال .

(تدخل الخادمة)

اليزابيث : (قلقة) : وماذا أنت فاعلة يا فلورنس ؟

فلورنس : لا شيء .

(يدخل هربرت وعليه مظاهر المرض)

هربرت : أهلا اليزابث (وينظر الى كل منهما نظرة الذى يستقصى أمرا) .

فلورنس : أهلا « سدنى » ، لقد علمت أنك ذاهب الى « سپا » ويحزننى ما لحق بصحتك ، وأعتقد أن هذا خير ما تفعله .

هربرت : وهل تظنين هذا ؟

فلورنس : (بهدوء) هذا ما أظنه .. وهل عيّن لورد پلمرستون خلفا لك ؟

هربرت : وكيف علمت أن أحدا سيخلفنى ؟

اليزابيث : لقد أخبرتها يا « سدنى » .

فلورنس : كنت آمل أن أسمع هذا منك شخصيا ، ولكن هذا لم يحدث ، ومن هذا الذى سيخلفك ؟

هربرت : أعتقد أنه « سير چورچ لويس » .

فلورنس : شىء جميل ، انه يكتب أشعارا جميلة باللاتينية ، ولا يعرف شيئا عن الأمور الصحية ، وسيكون عملنا على ما يرام .

هربرت : يبدو لى أنك لم تهتمى بهذا كثيرا .

فلورنس : ومن هذا الذى أهتم به فى قليل أو كثير ؟

هربرت : أنا الذى تخلّى وهرب .

اليزابيث : سأترككما .. لتتحدثا معا .

فلورنس : لا داعى لذلك يا اليزابث ، فليس هناك ما يقال .

اليزابيث : نعم ، ولكنى أود هنا .. وأنا أعلم أنك لن تشجعيه ليعمل عملا فيه جهالة .

فلورنس : وهل هذا ظنك بعملنا — جهالة ؟

اليزابيث : أنت تعلمين أنى لا أعنى هذا ، ولكن أى عمل مهما كان نوعه يعتبر الآن بالنسبة لى جهالة . ووداعا يا عزيزتى وسأخرج ، وعند عودتنا سأحضر لأراك .

(فترة سكون قصيرة بعد خروجها)

هربرت : ان الحق فى جانبها يا فلورنس ، لأن العمل الآن مهما كان نوعه جهالة ، ولست بقادر على العمل .

فلورنس : أظنك تشعر أنك لست له بكفء ؟

هربرت : ليس هذا ولكن حالتى خطيرة ، ولن أعود أبدا يا فلورنس ، واليزابث تجهل هذا فلا تخبريها .

فلورنس : ما هذا يا « سدنى » ؟

هربرت : سأموت بعد شهر .

فلورنس : وهل تلك أوامر الطبيب أيضا ؟
ابتهج وطب نفسا يا سدنى ، لقد قالوا لى مثل هذا عدة سنوات ، ولكنى عملت على أن أعيش .

هربرت : لقد حاولت هذا يا فلورنس ، ولكنى شعرت هذا الصباح وأنا أصعد السلّم بانهيار ، ثم حدث لى اغماء .

فلورنس : أعلم ذلك ، وقد حدث لى نفس الشىء .

هربرت : هل من ضرورة لأرى المشتغلين معك ؟

فلورنس : ليس هناك ما يستدعى ذلك ، وسنبدأ العمل من جديد .

(فترة سكون مصحوبة بالقلق)

هربرت : أظن أنه يحسن بى أن أذهب ، فوداعا .

(يمد يده)

فلورنس : (تمسك بيده) : لم تصادفنى لحظة فى حياتى شعرت فيها بمثل تلك المرارة التى أشعر بها الآن ، ولقد اتجه فكرى وقت أن قتل « تريماين » الى أن أمامى على الأقل عملا أعيش

من أجله ، والآن أرى ان عملى قد قتل أيضا .

هربرت : مسكينة أنت يا فلورنس .. عملنا المشترك ..

فلورنس : لن أتخاذل وسأستمر بمفردى ووداعا يا سدنى وأرجو من الله أن يرد اليك صحتك يا عزيزى ، وألف شكر لكل ما أديته لنا .

هربرت : أكرمك الله يا فلورنس .

(يستدير ويخرج مسرعا)

(فترة سكون ثم يدخل الدكتور سذرلاند، وتستدير فلورنس وتقف لتنظر من النافذة) .

سذرلاند : لقد فكّرت أن أبتعد عنكما قليلا ، ألم يأت لورد هربرت من أجل الأوراق ؟ قولى ، ماذا حدث ؟؟

فلورنس : لقد تنحّى ، ويجب أن نبدأ عملنا من جديد .

سذرلاند : يا الهى ، يا الهى ، أليس هذا مما يؤسف له ؟ ليس لدينا ما نقوله .. فهذه سنة الحياة .

(تنزل الستار)

المنظر الثـــانى

الحجرة نفسها ــ أغسطس عام ١٨٦١

(فلورنس ومس نيتنجيل فى حديث مع بعضهما ، بينما تدخل خادمة لتعلن عن قادم ٠٠)

الخادمة : لورد بلمرستون قد أقبل يا سيدتى

فلورنس : هل حضر ؟ دعيه يدخل فى الحال .

(وتنادى) : سذرلاند !!

سذرلاند : (يسمع صوته من خارج المسرح) : هل أنت على استعـــداد ؟

(ويظهر سذرلاند عند الباب)

فلورنس : لا ، لقد حضر بلمرستون لزيارتنا ، أليس ذلك انتصارا ؟ ؟

سذرلاند : (غير متحمس) : أى نعم ، انه عظيم ، ولكنه لن يقوم بالكثير .

فلورنس : أيها المتشائم ، اخبرنى عندما يأتى الآخرون .

سذرلاند : نعم ، سأفعل .

(يخرج ، وبعـــد لحظـــة يدخل لورد بلمرستون) ٠

فلورنس : (بحرارة) : لورد بلمرستون ، انه لكرم عظيم حقا ، وكان هذا أقصى ما أصبو اليه ، ولقد كتبت اليك كى تسمح لى بالحضور لمقابلتك ، ولم يدر بخلدى أنك ستحضر الى هنا بنفسك.

بلمرستون : آه ، ولكنك كأحد تلاميذى ، ولذا وجدت من واجبى كمدرس بار ، أن أراك فى مكان عملك.. وعلاوة على ذلك فقد كنت فى طريقى الى مجلس النواب ، وبودى لو أعلم سر قوتك ، لقد قيل لى أنك تطرينا بعقدمجلس شبيه بمجلس وزرائنا.

فلورنس : نعم ، اننا نسميه مجلسا .

بلمرستون : وهل سيكون انعقاده اليوم ؟

فلورنس : سيكون موعد انعقاده فى الثانية عشرة .

بلمرستون : هل لى أن أحضره بصفة غير رسمية ؟

فلورنس : سيكون لنا الشرف .

بلمرستون : اعلمى أن من واجبى أن أحذركم مقدما أنى لن أستطيع أن أعدكم بشىء أكثر من عطفى نحوكم .

فلورنس : ان شعورى ليزداد بفجيعتنا فى ترك سيدنى

هربرت لنـا ، وليس هناك من يمـلأ فراغه ما أعظمها من مأسـاة !

بلمرستون : مسكين هربرت ! انى لأظن أن ذلك آلمه كثيرا ، وأن أشد ما أقلقه وآلمه تفكيره فى موقفك ولقد كان لنا معا حديث طويل عندما قدم فى آخـر الأمر استقالته ، ولكن استمراره فى العمل كان ميئوسا منه .

فلورنس : لقد كانت له منزلة كبيرة عندك .

بلمرستون : أكبر منزلة من أى رجل آخر .

فلورنس : وأظن أنك تعود علىّ باللائمة بأنى كنت عاملا من عوامل انهياره ؟

بلمرستون : نصيبك فى اللوم قليل . لقـد كان لجلادستون وزير المالية نصيب كذلك .

فلورنس : وهل كان هذا لأن مشروعاتنا تتطلب المزيد من المال ؟

بلمرستون : بالضبط ، لأن مسـتشفياتك الجديدة تتطلب مئات الألوف من الجنيهات .

فلورنس : سوف أتذكر جلادستون دائما .

بلمرستون : نعم ، وواجبى كذلك أن لا أغفـله فهو ليس بالذى ينسى .

فلورنس : ألا يرجع تاريخ مرض «سدنى» الى الوقت الذى كان يناضل فيه جلادستون من أجل مستشفياتى ؟

پلمرستون : نعم هو السبب الأساسى .

فلورنس : ما قال لى هذا قط .

پلمرستون : وكيف يخبرك بما يدور بالمجلس ؟ وأنت تعلمين أن هناك قسما بالكتمان .

فلورنس : اذن لم يكن الامر انه كان يخشى مناضلة المسئولين فى وزارة الحربية ؟

پلمرستون : لاشك أنك تعلمين يا مس نيتنجيل أن الحكومة البريطانية اذا قررت أمرا ، حتى لو كان بسيطا نسبيا ، كالقيام باصلاح وزارة الحربية ، فان الموظفين الدائمين لا يجرؤن على معارضته ، ولكن اذا اختلفت الآراء بمجلس الوزراء ، فان الأمر قد يكون غير هذا .

فلورنس : اذن فأنا لم أكن عادلة .

پلمرستون : نحو من ؟

فلورنس : نحو سدنى هربرت .

پلمرستون : اذا كنت قد لمته .. وأظنك عدت عليه باللائمة ؟

فلورنس : هل من الصعب يا لورد پلمرستون ، اذا ما

ما استعاد « سدنى » صحته ، أن يعود الى وزارة الحربية ؟

بلمرستون : ولـــكن صحته لن تسمح بهذا .

فلورنس : لقد وصلتنى رسائل تشجع على هذا .

بلمرستون : لن يقوى على مقاومة الجهد .

فلورنس : لا أعنى عودته فى الحال بالنقل بعد سنة أو حتى بعد سنتين .

بلمرستون : وماذا تظنين أن سيكون رأى زوجته حيال ذلك.

فلورنس : ولكن هذا عظيم الأهمية فى المستقبل .

بلمرستون : أنت تعلمين يا مس فلورنس أنى كثيرا ما أسأل نفسى عما اذا كانت أعمالنا تهم الأجيال القادمة بقدر ما نخدع أنفسنا بأنها سوف تكون موضع الرضا منهم .

فلورنس : (بعنف) : عجبا ! ألا ترى خرق وخطورة موقفك هذا ؟ أراك تسمح بوجود المرضى والأقذار ، وتبتسم للفوضى وعدم الكفاية ، لا لشىء الا لأنها كانت دائما هكذا ، وتقعد عن خلق نظم جديدة !وتجد من السهل ابتكار جمل منمقـــة تبرر بها وجود المساوىء .

بلمرستون : عزيزتى ، ان لى من كبر سنى ما يجعلنى فى غنى عن وعظك . أريد أن أعاونك فيما تسمينه بعملك لأنى أحببتك ، ولكنى لا أريد أن أتخلى عن حسن ادراكى ومعرفتى للناس فسيظل الموظفون دائما قليلى الفهم ، وستظل وزارة الحربية على ماهى عليه من سوء الادارة للحروب، ولكن البلاد ستنتصر رغم هذا . ان أنت تخلصت من موظف ، أحللت غيره مكانه . ولو كان الأمر هو محاربة الفساد لكان شيئا آخر ، ولكنك تحاربين الطبيعة البشرية .

فلورنس : لست أومن بهذا ولكنى أعتقد بوجود من يعمل من أجل العمل .

بلمرستون : هذا صحيح ، ولكنه ليس فى «هوايت هول» حيث دور الحكومة ، ولكن استمرى فى تفكيرك اذا كان فى هذا راحتك .

فلورنس : أعتقد أنك تحاول قصدا تثبيط همتى .

بلمرستون : ربما أردت أن أجنبك مغبة الفشل .

فلورنس : أوه ، انى أضحى بكل شىء من أجل عودة سدنى، لأنه لم يكن يخشى الفشل ، ولكنه كان يتقاسمه.

(يدخل الدكتور سذرلاند)

سذرلاند : الجميع هنا يا مس نيتنجيل . معذرة لأنى لم أتنبه لوجود اللورد .

فلورنس : لقد تكرم اللورد بلمرستون بالحضور ليستمع الى آرائنا فى المسائل التى سبق لمستر هربرت مباشرتها .

بلمرستون : لأن هذا موكول الى الوزير المسئول .

فلورنس : ولكنك تجعلها موضع النظر من جانبه ؟

بلمرستون : ما دامت موضع الرضا ، ولكنى لن أضغط عليه.

فلورنس : لو صح أملنا فى عودة لورد هربرت الى العمل بعد سنة او ما يقرب من سنة ، فأظن ان الأحرى بنا أن نؤجل اصلاحات وزارة الحربية حتى ..

سذرلاند : نعم ، ولكن كيف ننتظر من اللورد هربرت ، حتى فى حالة شفائه التام ، أن يعود الى الحياة العامة ؟

بلمرستون : يتوقف هذا على «ليدى هربرت» .

فلورنس : اليزابث متعبـــة .

سذرلاند : حسنا ، وفى الوقت نفسه ، ألا نســـتفيد من

صداقة اللورد بلمرستون ، وهو هنا ، فنجعله يلم بمشروع تعديل النظم ؟

فلورنس : ونكون على الأقل قد قمنا ببعض الشيء حتى ولو رأينا ترك المسائل الكبيرة دون اتخاذ قرار نهائي فيها .. مؤقتا .

(يفتح الباب ، وبغتة ، تدخل اليزابث هربرت ببطء ، وعليها آثار السفر ، وقد دل وجهها على التعب كما علته صفرة ، وكانت ترتدى ثيابا سوداء) .

فلورنس : اليزابيث ! لقد كنت بألمانيا .

اليزابيث : لقد عدنا يافلورنس ، وكان من واجبى أن آتى اليك — لقد مات سدنى .. أنا .. لا أكاد أصدق هذا !!

فلورنس : (تحتضنها بين ذراعيها) : عزيزتى .. عزيزتى ..

اليزابيث : لقد ذكرك .. فى آخر كلمات قالها .. ولم يذكرنى .. ذكرك أنت وذكر عملك الذى لم يتم

(فترة سكون قصيرة)

فلورنس : (بحنان) لقد كان رائدنا ورئيسنا العزيز ، لقد أدركنا الآن خسارتنا الفادحة .. لن نراه ثانية أبدا .

(تنزل الستار)

الفصل الرابع

المنظر الأول

حجرة بالمنزل رقم ١٠ بشارع « سوث ستريت » فى «بارك لين» فى صيف عام ١٨٨٦

مضت خمس وعشرون سنة كاملة على موت «سدنى هربرت» ولكن نشاط فلورنس نيتنجيل الذى لايجد الوهن اليه سبيلا ، كان لايزال موجودا ولم يصبه كلل ـ ولقد توالت تنظيمات كثيرة اختبارية ودعمت سياستها الخاصة بالمستشفيات ٠

وحتى مشروع اعادة بناء الثكنات ، وكان قد أغفل لحاجته الى من يقف الى جانبه وقت أن مات سدنى هربرت ، عاد فأينع وأثمر عندما صرفت عليه الحكومة أربعة ملايين من الجنيهـــات لتنفيذه ٠

وبذلك توجت أعمال العمر بالنجاح ـ ولنا أن نقول انهـا قد تمت ولم يبق الآن الا أن تؤمن ويعمل على ابقائها ٠

وترى فلورنس فى فراشها ، وهو فى حجرة ذات طلاء أبيض نمقته رسوم بارزة ، وبها منضدة عريضة وعليها أدوات للكتابة فى متناول يدها ٠ وتقف ممرضة شابة جميلة أنيقة فى انتظار الأوامر ، بينما تقرأ فلورنس فى قصاصة صغيرة من الورق فى شيء من التردد ٠

فلورنس : (أخيرا) : ولماذا أحيد عن القاعدة من أجله ؟ لا ، لن يكون بغير موعد .

المرضة : انه مستر جلادستون بنفسه يا مس نيتينجيل انه ينتظر فى الخارج .

فلورنس : لن أقابله بغير موعد سابق ، قد يقابله الدكتور سذرلاند ــ فيما بعد .

المرضة : هـ. هـ. هل تخبره ؟

فلورنس : فى الواقع انه رجل موهوب ، ولكنى لا أظن أحدا حتى من حزبه يعترف له ببعد النظر .

المرضة : لا يا مس نيتنجيل .

فلورنس : مس نيتنجيل لا تقابل أحداً على غير موعد ، وقد اتخـــذتها قاعدة ولن تتخلى عنها والا استحال عليها أن تعمل ، وهى تجد وجودها فى عملها .

هل تفهمين ؟ هذا ما يجب أن يقال له مع ابداء أسف مس نيتنجيل العميق .

المرضة : نعم يا مس نيتنجيل .

فلورنس : لاحظى أن تبلغيه الكلمات بنصها .

المرضة : نعم يا مس نيتنجيل .

فلورنس : (بحنان) وانى أعتب عليك لأنك تصعبين الامور أمام نفسك بالقلق من أجل عملك ، وليس هذا مما يصل بك الى نتائج ، ومهما كان قبل العمل

الذى تأخذين على نفسك القيام به ، سواء كان ادارة مستشفى أو تبليغ رسالة ، فلا تجعلى نظرتك الى العمل تتغلب عليك ، بل كونى أنت المتغلبة عليها .

الممرضة : لست أخشى العمل أبدا يا مس نيتنجيل .. حقيقة .

فلورنس : لم أقل يا عزيزتى انك لا تشتغلين ، ولكنى أقول انك تجعلين الأمور تقلق بالك ، وأراك الآن تهابين الذهاب الى مستر جلادستون لتبليغه رسالتى ، فلماذا ؟ وأنت انما تبلغين قولى .

الممرضة : انه رجل ذو منزلة رفيعة .

فلورنس : حسنا ، ولكنك ان أردت القيام بعمل ، فلا بد أن تعتادى مواجهة عظماء الرجال ، وعجائب المشكلات وعظائم الأمور ، واذا عزمت على أداء أمر ترينه الصواب فلا تخشى شيئا مهما بلغ شأنه . هل تظنين أنى كنت أتغلب على كل الادارة الطبية بالجيش بعظماء رجالها ، ومن ورائهم نصف مجلس الوزراء يؤيدونهم ، ويتكاتفون جميعا لمجرد اعتقادهم أن سيدة

تأمرهم لو أننى قبلت صاغرة ورضخت لما يصدرونه من نفايات .

لقد كانوا جميعا من عظماء الرجال ، وكان من يعرفون بالخبراء يؤمنون كل الايمان بأنهم فى جانب الصواب ، مع أنهم لم يكونوا كذلك ، ولقدألزمتهم الواحد بعد الآخر الحجة،وانتصرت فيما أسعى اليه وأجاهد من أجله ، ــ وهذا فى ميسور كل السيدات ، وما أنت الا واحدة منهن

الممرضة : سأحاول ، سأحاول يا مس نيتنجيل .

فلورنس : جميل ! والآن اذهبى الى مستر جلادستون وخففى عنه ما لحق به من أسى .

الممرضة : نعم يا مس نيتنجيل .

(تخرج الممرضة وتستمر فلورنس فى الكتابة ، ويطل سذرلاند فى الحال من الباب برأسه الأشيب الذى أتت عليه تقلبات الأيام وهو رجل قد جاوز الثمانين)

سذرلاند : هل يسمح لى بالدخول ؟

فلورنس : ان لم تكن تخشى ان ترى سيدة شمطاء غير أنيقة وهى فى فراشها .

سذرلاند : لم يحن الوقت لهذا بعد ، ماذا حدث ؟

فلورنس : لا أقدر ان أضيع سدى ما زلت أشعر به من

نشاط عصبى ضئيل ، وأبذل جهدا لا ضرورة لبذله فى التأنق .

سندرلاند : نشاط عصبى ضئيل ، هـذا كلام لا وزن له عندى ، وانى ليكفينى ربع ما عندك من نشاط ، فأنت لا ينقصك غير القوة الجسدية ، (متوددا) ألا تتعلمين أن تهيىء لنفسك فرصـة للراحة يوما ما انى لأعجب دائما كيف لا زلت تعيشين .

فلورنس : كفى هذا التأنيب يا دكتور ، ويجب أن تغنى فرحا ، أتدرك ماذا يكون هذا اليوم ؟

سندرلاند : انه يوم الاثنين .

فلورنس : انه الثانى من شهر أغسطس ، وهو يوم ذكرى وفاة « سدنى » الخامسة والعشرين .

سندرلاند : لست أجد فى هذا ما يبرر الغناء فرحا .

فلورنس : ولكن أليس هذا شيئا نغنى من أجله ، وقـد ثابرنا وثابرنا ولم نستسلم للهزيمة ولم تخـر عزائمنا ، حتى أنجزنا عمله وكسبنا معركته فى النهاية ؟

أتدرى من الذى سيأتى لزيارتى اليوم ؟

سندرلاند : نعم ، انه مستر جلادستون ، ولقد رأيته ساعة دخولى .

فلورنس : لا ، لن أقابله (ثم قالت بحنان زائد) انها اليزابيت هربرت ، وهذه أول مرة تأتى فيها منذ وفاة سدنى .

سنرلاند : (فى دهشة) ولماذا لا تقابلينه ؟

فلورنس : مستر جلادستون ؟ لا ، وبخاصة فى هذا اليوم دون الأيام جميعا ، وهو شريكى فى القتل ، لقد أجهزنا على سدنى معا .

سنرلاند : (فى قلق) أما آن الوقت لتنسى هذا التفكير السقيم عن سدنى ؟ لقد مات الرجل بذات الرئة، ولقد تعبت من تكرارى لك بأنه لا شأن لك بوفاته الا بمقدار شأنك فى مقتل يوليوس قيصر.

(بعد فترة سكون)

وماذا آنت قائلة لليدى هربرت ؟

فلورنس : لا أدرى ، لقد كنا نراسل بعضنا مرة واحدة كل عام فى مثل هذا اليوم منذ وفاته ، ولكنا لم نتقابل أبدا .

سنرلاند : اذن ستقضيان أمسية ممتعة ، وأظن أنه ليس من المستحسن أن أخبرك الآن . .

فلورنس : وما هذا الذى تريد أن تقوله ؟ هلم واخبرنى عنه ، ما هو ؟

سنرلاند : لقد استقلت من وظيفتي الحكومية .

فلورنس : (فترة سكون) : أظن أننا أسرعنا بالفرحة والابتهاج بعملنا ، ولذلك ستهجرنا وتترك العمل فلا يتم .

سنرلاند : (بهدوء) وماذا يعود على من كسب ان أنا قتلت نفسي وأنا قائم بالعمل ؟ ألا تدرين أني قد جاوزت الثمانين ؟ وأرى أن الأفضل لك أن تستعيني برجل أصغر سنا ، وأظن أن هذا يتفق وما تريدين .

فلورنس : وهل حرمانى من الشخص الوحيد الذى أعتز برأيه ، يتفق وما أريد ؟ ولماذا لم تأت وتسألنى ؟ هذا هو أبشع ما نلاقيه من مشاركة الناس فى الأعمال ، لأنهم يجعلون أنفسهم ولا غنى عنهم، ثم تراهم يتركونك أو يموتون .

سنرلاند : هذا لأنهم يجدون من واجبهم اختيار الطريق الأول كى يتحاشوا الطريق الثانى .
هذا ولم يعد عملى كما كان ، وانه ليوم محزن ذلك الذي أتركك فيه ، ألم أكرس كل أوقات فراغى وكل الأوقات التى كان من الواجب ان

أقضيها مع زوجتى العزيزة لمعاونتك رغم أنها معاونة متواضعة ؟ ذلك لأنى تذكرت ذلك اليوم الذى مات فيه هـذا الشاب التعس ، وكيف حزنت فيه لحزنك ، وتذكرت كيف كنت عظيمة فى تحملك لهذا المصاب .

وليس هناك فى هذه الدنيا من شىء مؤكد الا ساعة الفراق ، وها هى ذى ساعة سذرلاند قد حانت الآن .

فلورنس : سذرلاند ! سذرلاند ! وماذا أنا فاعلة بدونك ؟ وهل لا تأتى لترانى ؟

سذرلاند : نعم سآتى ، وما دامت لدى القوة فانى سأقوم قدر طاقتى برسائلك الخاصة وباعداد التقارير ولكن بينى وبين مسئوليات الوظيفة العـامة فراق .

(الممرضة بالباب)

الممرضـة : لقد وصلت ليدى هربرت .

فلورنس : دعيها تدخل بمجرد خروج الدكتور سذرلاند ، وماذا حددت للمقابلات من مواعيـد فى هذا المساء ؟

الممرضة : يلى مقابلة ليدى هربرت ، موعد مقابلة جمعية الصليب الأحمر الأمريكية وهى فى الرابعة والنصف ، ويلى هذا ، موعد مقابلة وزير الهند وهو فى الساعة الخامسة ، ثم موعد مقابلة قدامى محاربى القرم فى الخامسة والنصف . وقد تركت الساعة السادسة بغير موعد كما قلت لتكون للدكتور سذرلاند اذا ما رغب فى مقابلتك .

فلورنس : نعم ، ولتحضر ليدى هربرت الآن .

(تخرج الممرضة وقد أخذت كتابا)

وأنت أيها الصديق القديم ، هل تسمح بالعودة الى هنا لنعاود المناقشة فى الساعة السادسة ؟

سذرلاند : سأعود فى السادسة أو فى منتصف الليل ، أو فى أى وقت ترتاح اليه أعز صديقة لى فى الوجود .

(تقف خادمة بالباب وتقول : ليدى هربرت أقالى ، سذرلاند يصافح فلورنس وقت خروجه ، ويحيى اليزابث بايماءة عندما رآها تدخل) .

(ولقد أضنت السنون الخمس والعشرون اليزابث وغيرتها وهى الآن كاثوليكية وشديدة التحمس لمذهبها الجديد)

اليزابيث : أهلا فلورنس ، لست أدرى لمـــاذا أتيت .. لم يكن فى نيتى الحضور .

فلورنس : (برقة) ولم لا يا اليزابث ؟

اليزابيث : الأفضل أن ندفن الماضى نهائيا ، ولست أريد أن أتذكر .

فلورنس : وأنا لا أريد أن أنسى يا اليزابث .. الا يسرّك أن تسمعى أن عمل « سدنى » قد تم أخيرا ؟

اليزابيث : أقـولها صراحة ان هذا لا يسرّنى فى قليل أو كثير ، ولقد قمت بما وسعنى القيـــام به عندما كان « سدنى » حيّا ، وذلك لأعاونه ، ولقـد قمت به لأنى أحببته ، ولم يكن لأنى أحببت العمـل الذى يقوم به ، ولو أنه كان مزارعـا لفلحت الأرض مـــعه وأنا مسرورة وفخورة .. ولكنى ما كنت بعد موته لأقترب من المزرعة مرة أخرى ، وما كنت الا كارهة لهذا المكان ، وبخاصة اذا كان هـو المتسبب فى قتله .

فلورنس : وهل أفهم من هذا انك تكرهيننى يا اليزابث ؟

اليزابيث : لست أنت بمكان يا فلورنس ، وديننا ينهى عن

كراهية الناس ، ولكنه يعلمنا أن نصلى من أجلهم ، وأظن انى قد عوّدت نفسى أن تنسى سدنى ، وأعنى نسيانها لألم الفراق . وبوسع المرء أن يأتى بجلائل الأعمال ان هو ركّز ذهنه فى التأملات الدينية ، ولكنى لم أنس ولن أنسى .

فلورنس : (برقة) أما كان أسهل عليك ألاّ تعملى للنسيان وتذكرى كم كنت تسعدين لو أنك شاركتنا فى انجاز عمله ؟

اليزابيث : ليس لك من اجابة على أى شىء الاّ بكلمة العمل .

فلورنس : وليس لك الاّ التأملات ، ولكن التأملات تظل ساكنة ، وأما العمل فيسير بك الى أن تسعدى وأنت ترين النصر النهائى لمن مات . وان أنت بلغت هذا النصر ، حقّ لك أن تغنّى مثلى وتقولى :

« فلنرحلن الآن » .

اليزابيث : نعم ، ولا تنسى مع هذا أن المولى هو الذى

يختار الوقت الذى يجعل فيه عبيده يرحلون فى سلام .

فلورنس : وهل تعنين أن المرء قد يمتد به العمر فلا هو بقادر على العمل ولا هو بملاق الموت ؟ وان هذا قد يكون عقابى ؟

اليزابيث : نعم يا فلورنس .. قد يكون هذا .. ولعلها .. النار هى التى تطهرنا من ذنوبنا ، والتى لابد أن نصطليها جميعا .

(تدخل الخادمة وهى تحمل صنية ، وتضعها على منضدة)

فلورنس : هل لك فى شىء من الشاى يا اليزابث ؟

اليزابيث : شكرا .

(تنزل الستار)

المنظر الثـــانى

حجرة استقبال بالمنزل رقم ١٠ فى « سوث ستريت » فى ربيع ١٩٠٨/١٩٠٧ ووقفت احدى الممرضات تلاحظ ، بينما كان رجلان يقومان بعمل المعدات لحفل قد اقترب موعده ، ونصبت بعض المقاعد المذهبة لعدد قليل من المدعوين ، ويرى رجل ثالث وهو يطل برأسه من الباب ٠

الصحفى : وهل هذا هو المكان الذى ستقيمونه فيه ؟

الممرضـــة : ماذا ؟

الصحفى : هل هذا هو المكان الذى ستقيمونه فيه ؟

الممرضـــة : من أنت ؟

الصحفى : (يريها بطاقته) صحافة ، : هل تسمحين باعطائى فكرة عن الغرض من اقامة هذا الحفل ؟

الممرضـــة : انه حفل رسمى للتكريم بطبيعة الحال .

الصحفى : حفـــل رسمى ؟ لقد كانت « مس نيتنجيل » ممرضة ، ألم تكن كذلك ؟

الممرضـــة : نعم .

الصحفى : ومن سيكون هنا اليوم ؟ هل سيحضر أحد من ذوى المكانة ؟

الممرضة : نعم ، سيحضره الوزير ، واللورد عمدة لندن ، وواحد من قصر بكنجهام ..

الصحفى : (يكتب مذكرات) : نعم ؟ أتعرفين من هو ؟

الممرضة : كبير الياوران .

الصحفى : نعم ، ومن غيره ؟

الممرضة : أصدقاء مس نيتنجيل وأقاربها ، وبعض قدامى المحاربين بالقرم .

الصحفى : والآن ، ما هذا التكريم الملكى بالضبط ؟

الممرضة : انه وسام الاستحقاق .

الصحفى : ولماذا يمنحونه لها ؟

(تنظر اليه الممرضة بامتعاض)

نعم ، أنا أعرف .. القرم ، وانى آسف لما ظهر من جهلى ، فليس لدى متسع من الوقت لقراءة التاريخ فى عملى هذا كما تعلمين .

وهل منحت أنت مدالية ؟ وفى أى مناسبة ؟

الممرضة : فى حرب البوير .

الصحفى : أقولها صادقا انى ما كنت أظن أن النساء يمنحن مداليات ، ولعلهن يرتدين الحـــلة الكاكى فيما بعد .

(يدخل الحجرة رجل وقور طويل)

الممرضة : نعم ، من السيد اذا تكرم ؟

مندوب التيمز: أنا مندوب صحيفة التيمز .

الممرضة : أوه ، هذا السيد أحد زملائك فى المهنة !

مندوب التيمز: هل أنت صحفى ؟

الصحفى : نعم يا صديقى ..

مندوب التيمز: (يحيّيه باحترام) هل لى أن أسأل أىّ صحيفة تمثل ؟

الصحفى : أنا وحقيقة الأمر مندوب احدى وكالات أنباء السباق وقد عُهد الىّ بهذا العمل الآن ، ورجائى أن تعاوننى يا صديقى اذ لا عِلْم لى بشىء من هذا القبيل .

مندوب التيمز: يحسن بك أن تجلس معى وسأدّلك على كل واحـد ومن يكون .. (يخاطب الممرضة) : أتعرفين من القائم بعمل الترتيبات ؟

الممرضة : (تشير الى رجل قرب الباب ، يدل مظهره على أنه ذو مكانة رفيعة) : هو منظم الحفلات ، أليس كذلك ؟

مندوب التيمز: منظم الحفلات ؟ بالله عليك لا تجعليه يسمعك وأنت تسمينه هكذا !! انه أحد أمناء التشريفات بالسراى (ويتجه اليه) : معذرة !

أمين التشريفات : آسف اذ ليس لدىّ وقت للحديث ، وها هو ذا الوزير قد أقبل .. واذا كنت تريد مقـــاعد الصحفيين فهى فى ذلك الركن .

(يدخل أحد رجال الجيش ، وهو وسيم الطلعة وفى زيه الرسمى)

هذا كبير الياوران بالسراى .

كبير الياوران: هل أصبح كل شىء معدّا ؟

أمين التشريفات : تقريبا ، وانى أقدم لكم السيد الوزير .

الوزير : تشرفنا ؟ تشرفنا ؟

وما برنامج الحفل ؟

أمين التشريفات : فلننتظر دقيقة حتى يحضر اللورد عمدة لندن .

(يدخل ويقوم بتحية الوزير ثم يدلونه الى بأسماء ذوى المكانة عند دخولهم) .

رئيس جمعية الصليب الأحمر الأمريكى .

(يدخل ويقوم بتحية الوزير ثم يدلونه الى مقعده)

ليدى هزبرت أف لى .

(تدخل اليزابث هربرت ، وقد جـــاوزت الآن سن الثمانين ، ولكنها ما زالت متمتعة بصفاء الذهن ونشـــاطه ، وقد أصبحت راهبة ، وكانت ترتدى ثيابا سوداء ، وعلى وجههـــا ظهرت تجاعيد غائرة ، ويسرع

الوزير للترحيب بها ، ثم يأخذ بها الى مقعد كبير قرب المنصة ، ويقف الجميع لها وقت مرورها بالحجرة)

الوزير : (موجها الحديث الى اليزابث بعد جلوسها) أرجو أن يكون المقعد مريحا .

اليزابيث : مريح جدا ، وشكرا ، أين هى ؟

الوزير : لم تنزل بعد ، وأنت تعرفين يا ليدى هربرت أنها ليست قوية جدا الآن .

اليزابيث : قوية ؟ ما كان لسيدة ضعيفة أن تعيش طويلا مثلها وتكون بعافية — لقد كانت قوية جدا حتى ان « سدنى » المسكين لم يقو على مجاراتها .

أمين التشريفات : (بالباب) : صاحب المقام الرفيع اللورد عمدة لندن .

الوزير : أرجو المعذرة .

(ويسير لمقابلة العمدة ـ ويتبادل المسئولون التحيات)

وهل أصبح كل شيء معدا ؟

أمين التشريفات : نعم ، بعد لحظة ، وسيكون برنامج الحفل بالترتيب الآتى :

كلمة الوزير أولا ، وتليها كلمة رئيس الصليب

الأحمر الأمريكى ، ثم كلمة اللورد عمـــدة لندن .. ولا حديث لغير هؤلاء ، مع مراعـاة الايجاز ، لأن صـحة مس نيتنجيل لا تحتمل الاطالة .

ثم يقدم كبير الياوران « الوسام » نيابة عن صاحب الجلالة ويتقدم بعد ذلك مديرو الأمن ومعهم « سجل الأحرار » الى مس تنينجيل لتوقع عليه ، وبذا ينتهى كل شىء ، فهل ينال هذا منكم الرضا ؟؟

اللورد العمدة : نعم ، نعم ، يكفى هذا .

الوزير : ان مندوب الجيش الألمانى يود تقديم شىء باسم الحكومة الألمانية

امين التشريفات : يمكن أن يكون هذا بعـد توقيع « سجل الأحرار » .

الوزير : حسنا جدا .

اللورد العمدة : ألا يحسن أن نبدأ اذن ؟

لأنى على موعد بالقصر فى الخامسة والنصف ، وعلى موعد لعشاء رسمى بعد ذلك .

وأين مذكراتى ؟

(تسلّم اليه فيتناولها بعصبية) ويقول :

ذلك المكان ، اســـكوتارى ، أظنــه يسمى اسكوتارى ، وهل هو حيث كانت توجـــد المستشفيات ؟

امين التشريفات : لست أدرى ، وأخشى ألاّ يكون هو الاسم ، وهل تسمح باتخاذ مكانك الآن يا لورد ؟

اللورد العمدة : نعم ، بكل تأكيد .

(ويبدأ الرسميون فى التحرك نحو أماكنهم، ويقل سماع أصوات الأحاديث بالحجرة) .

امين التشريفات : (من باب صغير) : مس فلورنس نيتنجيل !!

(ويقف الجميع)

ويندفع الى داخــل الحجـــرة بكرسى كبير ذى عجلات ، وقد جلست عليه سيدة فى السابعة والثمانين — انها فلورنس ، وهى ذات وجنات شبيهة بالتفاح ، وكان يبدو عليها وهى فى عمرها المديد مظاهـــر العظمة والوقار ، كما كانت حياتها سجلا زاخرا بالأساطير ، ولقد ســاروا بكرسيها الى المكان المخصص لهــا ، وكانت تعبّر عن تقــديرها لهذا الاستقبال بايماءات صغيرة وهى باسمة .

امين التشريفات : الوزير !!

الوزير : لقد اجتمعنا اليوم لنشهد الاعتراف بالخدمات التى قدمت لهذا الوطن وللانسانية بوجه عام ، تلك الخدمات التى بدأت عندما كان آباؤنا فى شرخ الشباب ، والتى استمرت الى يومنا هذا ولم تنقطع .

وهذه السيدة ذات المكانة الرفيعة ، والتى اجتمعنا لتكريمها ، تعتبر بحق مؤسسة التمريض الحديث وصاحبة اليد الطولى فى كل ما يقوم بالمستشفيات من أعمال مجيدة ، تعود على المرضى من بنى الانسان بالنفع الذى هو دائما فى ازدياد ، وليس هذا فى بلادنا فحسب ، ولكنه فى البلاد المتحضرة جمعاء ، وما كل هذا الا من ثمار مجهوداتها .

ولم تقتصر شهرتها على ما قامت به فى المستشفيات من اصلاح . ففى الأيام الحالكة فى حرب القرم .

(تصفيق)

وكادت الجراح والأمراض تصيب الجيش البريطانى بالكوارث ، كانت هذه البطلة المتفانية فى الاخلاص تتحرك بين الجنود وكأنها ملاك .

وقد عبّر الشاعر « لنج فلو » عن ذلك بقوله :
« انظر ، ففى تلك الدار المليئة بالشقاء ، أرى سيدة وبيدها مصباح ، كما أرى شاكى الآلام وقد عجز عن الكلام ، يلتفت بتؤدة وكأنه فى حلم هنىء ليلثم خيالها وقد ظهر على الجدران القاتمة » .

ان ما قامت به « مس نيتنجيل » من الخدمات نحو الانسانية ليس فى الامكان حصره وتقدير مداه ، وهى بمجهوداتها التى لا تكل قد أيقظت عطف الناس نحو البؤساء ، ذلك العطف الذى فيه رضا المولى والذى لن يسمح له بالعفاء . ولقد كان من بواعث سرور صاحب الجلالة أن أمر بضرورة التقدير العظيم لتلك المجهودات . وان « سجل وسام الاستحقاق » الذى خصّت به مس نيتنجيل دون غيرها من السيدات ، ليحوى عددا أكبر من أسماء العظماء الذين قاموا بخدمات للوطن ، غير انه لم يكن بين هؤلاء جميعا عضو هو أحق منها بمثل هذا التكريم كهذا العضو الذى لنا شرف الاجتماع اليوم لنشهد اضافة اسمه فى سجل العاملين .

(يدور الحديث ثانية بين الضيوف عندما يبتعد الوزير)

أمين التشريفات : « رئيس جمعية الصليب الأحمر الأمريكية » .

الرئيس : سيداتى سادتى ، انه ليس لمندوب بلد غير بلادكم أن يتناول بالحديث أمورا هى من أهم ما يعنيكم دون غيركم الا أن « مس نيتنجيل » ليست لكم وحدكم ولكنها للعالم أجمع ، فهى من بريطانيا العظمى ولكنها ليست لبريطانيا العظمى وحدها هى ملك للدنيا ، والدنيا تزهو وتتيه اعجابا بابنتها الطاهرة النقية .

ان فلورنس نيتنجيل ، وهى رائدة الشفاء من العلل والأسقام ، اذا ذكر اسمها بالولايات المتحدة الأمريكية صادف عطفا خاصا وكان موضع الاحترام المقرون بالحب .

ونحن لا نقيم لها نصبا من الحجارة ، ولا نمنحها وساما ، لأن هذه الأشياء ليست فى بلادنا ، ولكن أمريكا أسست ألف مدرسة للتمريض باسمها ، وهذه هى النصب التذكارية التى نقيمها ، والتى سوف تزداد دائما وتلك هى الماليات التى تهديها الولايات المتحدة لها .

(تصفيق ، ويجلس بجانب الوزير)

امين التشريفات : « صاحب المقام الرفيع اللورد عمدة لندن » .

اللورد العمدة : (وقد أغفل مذكراته) : كنت قد أزمعت أن أبدى بعض ملاحظات عن .. اسكوتارى ، حيث .. كانت توجد المستشفيات ، وكذا عن حرب القرم . ولكنى أشعر أن لا ضرورة لهذا ، لأننا نعلم جميعا ما قامت به مس نيتنجيل من جلائل الأعمال ، وهى أعمال جليلة ، وجليلة جدا .

وأنا .. أذكر أنى قرأت أنها كانت على وشك أن تفقد حياتها أثناء تمريضها للجرحى ، وأن الأهوال كانت تحيط بها ، وهذا يدفعنى وقد اختصونى بهذا الشيء العظيم الى القول بأن « مجلس مدينة لندن العام » قرر وضع اسم هذه السيدة الرفيعة الشأن فى سجل أحرار مدينة لندن » .

ونحن نبتهل اليها أن تتقبل منا ذلك .

(ويعود الى مقعده)

كبير الياوران : (يتقدم) : لقد أمرنى صاحب الجلالة الملك أن أسلّمك يا مس نيتنجيل « وسام الاستحقاق » وهو منحة يعبّر بها جلالته عن

سروره العظيم وتقديره لخدماتك الغالية نحو وطنك ونحو الانسانية جمعاء .

(يقترب ويضع المدالية فى يدها ثم يعود الى مكانه) .

فلورنس : (تومىء برأسها وهى باسمة) : كرم كبير ، كرم كبير .

(وتخاطب ممرضتها) : ما هذا يا عزيزتى ؟

(وفى غير وضوح) : يجب أن يشكروا .

الممرضة : انه من الملك يا حبيبتى ، ضعيه فوق كتفيك .

فلورنس : (تسمح بادخال الشريط من فوق رأسها) انه لعطف كبير حقا !

(تصفيق من المجتمعين)

وتقول للممرضة : لماذا يفعلون ذلك ؟

الممرضة : انها القرم يا حبيبتى .

فلورنس : نعم ، نعم (وبصوت أعلى) كل ما يمكن أن أقوله عن القرم ان الجنود كانوا شجعانا حقا .

صوت أجش من أحد قدامى المحاربين بالقرم : « وكم كنت شجاعة أنت أيضا يا « مس » !!

فلورنس : من هذا ؟

الممرضة : أحد قدامى المحاربين فى القرم .

فلورنس : جنودى الشجعان ، لن أنسى بشاشتهم نحو بعضهم ، ولا رقّتهم نحوى ، أكرمهم الله .

تميل برأسها ضعفا لأنها بذلت جهدا غير منتظر بهذا الكلام القليل)

المرضة : (تهمس لأمين التشريفات فى لهفة) : هلم ، هلم !!

(يقترب الأمين ومعه « سجل الأحرار »)

فلورنس : (توقظ نفسها) : ما هذا ؟

المرضة : انه السجل لتوقعى عليه .

(وتخاطب الأمين الذى يمسك به) : أعطنى القلم ، انها لا ترى .

فلورنس : ولماذا أوقع على هذا ؟

المرضة : انه شرف توقيع اسمك فى سجل أحرار مدينة لنـدن .

فلورنس : منتهى العطف !!

(وبمعاونة المرضة ، توقع بمشـقة على القائمة بأوائل الحروف)

أخبروا الدكتور سذرلاند .

(يقسح الأمين لأحد رجال السلك السياسى الألمانى) .

(يقدم باقة عظيمة من الزهور)

السياسى : يرجو سيدى الامبراطور من « مس نيتنجيل » أن تتقبل هذه الأزهار وقد انتقاها بنفسه بالقرب من منزلها القديم .

فلورنس : (آليا) : غاية العطف ، غاية العطف !

(ويبدى الأمين اشارة فيمر العظماء ، الواحد بعد الآخر ثم ينحنون أمامها ويخرجون) .

(وتأتى اليزابث فى آخرهم ، وتصبح هى وفلورنس مرة أخرى وجها لوجه)

الممرضة : أظن لا شىء بعد هذا ؟

أمين التشريفات : لا ، هذا كل شىء .

الوزير : هل تذكرين يا مس نيتنجيل صديقتك القديمة ليدى هربرت ؟

فلورنس : ماذا يقول ؟؟

الممرضة : ليدى هربرت ، انظرى يا حبيبتى ، انها « ليدى هربرت » .

فلورنس : لقد كانت جميلة ، ومسلكها جميلا ، وكنا أصدقاء الى أن مات .. ولكنى فقدتها .

اليزابيث : فلورنس .. ألا تعرفيننى ؟؟

فلورنس : كم هو محزن أن يفقد الانسان الأصدقاء ، وأصدقائى لا يأتون أبدا الآن .

وهل أرسلت فى طلب الدكتور سذرلاند ؟؟

(وتسلمها العلبة) : يجب أن تعطيها له وتطلبى منه اعداد الرد .

المرضة : (همسا) : أنت تعلمين أنه قد مضى خمس عشرة سنة على وفاته .

الوزير : يبدو أنها لا تذكرك .

اليزابيث : سأذهب (وبينما أخذت تسير ، التفتت وعادت لتقبل يد معاصرتها العظيمة) .

فلورنس : من فعل هذا ؟ انها كانت اليزابث ، أنا أعلم أنها كانت اليزابث ، لقد فارقتنى منذ زمن طويل ، لو كان لى أن أرى بعينى .

اليزابيث : فلورنس !

فلورنس : انه صوتها أيضا .

اليزابيث : فلورنس ، هل يغتفر كل منا للآخر ؟

فلورنس : كما نغتفر لمن كان آثما فى حقنا .

(تضطجع متهالكة الى الخلف فى مقعدها ، وتمعن الممرضة النظر فى وجهها)

المرضة : (تخاطب اليزابث بحزم) : سيدتى ، يجب أن تذهبى .

(وتخاطب الوزير) : لا يا سيدى ، لا تخاطبها ثانية ، ولن أتحمل المسئولية .

(وتخرج اليزابث ببطء وقد أمسكت بذراع الوزير ، ولم يكن قد زال ما نجم عن العراك من أثر ، وتقف المرضة وتكلم مس نيتنجيل بحنان وهى تقول :

لابد ياحبيبتى أن نذهب بك الى الفراش لتنالى قسطا كبيرا من الراحة قبل تناول العشاء .

هل نطهو لك بيضة للعشاء .

فلورنس : (طائعة) : نعم يا عزيزتى .

المرضة : انك متعبة ولا شك .

فلورنس : لقد كانوا كرماء ، كرماء جدا .

(وبابتهاج) : لا أدرى فيم كانوا يتحدثون .. لابد لنا أن نسأل الدكتور سذرلاند ..

(وتخرج المرضة بها وهى فى مقعدها ذى العجلات)

الخاتمة

روائع المسرح العالمى

صدر منها حتى الآن ٤٣ مسرحية

رقم العدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	الشقيقات الثلاث	أنطون تشيكوف
٢	أعمدة المجتمع	هنريك ابسن
٣	سيرانو دى برجراك	ادمون روستان
٤	مروحة ليدى وندرمير	أوسكار وايلد
٥	يتيلوبى	سمرست موم
٦	الغربان	هنرى بك
٧	اليكترا	جان جيرودو
٨	توركاريه	ا . ر . لوساج
٩	الدائرة	سمرست موم
١٠	شاترتون	الفرد ديفينى
١١	الأم	كارل تشابك
١٢	اللعبة الغادرة	جون جالزوردى
١٣	لعبة الحب والمصادفة	ماريفو
١٤	ست شخصيات تبحث عن مؤلف	لويجى بيراندللو
١٥	عربة اسمها الرغبة	تنسى وليامز
١٦	عزيزى بروتس	ج . م . بارى
١٧	رجل الله	جابرييل مارسل
١٨	هيدا جابلر	هنريك ابسن
١٩	سباق المشاعل	بول هارڤييه
٢٠	كنوك	جول رومان
٢١	جونو والطاووس	شين أوكاسى

رقم العدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٢٢	دون جوان	موليير
٢٣	بيت برناردا ألبا	فدريكو غرسيه لوركا
٢٤	القرد الكثيف الشعر	يوجين أونيل
٢٥	مأساة الدكتور فوستس	كريستوفر مارلو
٢٦	الأستاذ كلينوف	كارن برامسون
٢٧	ثورة الموتى	اروين شو
٢٨	ماتعرفه كل امرأة	أوسكار وايلد
٢٩	أهمية أن يكون الانسان جادا	جيمس بارى
٣٠	دائرة الطباشير القوقازية	برتولت برشت
٣١	منزل القلوب المحطمة	جورج برنارد شو
٣٢	القيثارة الحديدية	جوزيف أوكونور
٣٣	أفكار صبيانية	نويل كوارد
٣٤	زوجة مستر تانكرى الثانية	آرثر وينج بنيرو
٣٥	عندما نبعث نحن الموتى	هنريك أبسن
٣٦	لا وقت للفكاهة	س ٠ ن ٠ بيرمان
٣٧	سيجفريد	جان جيرودو
٣٨	علماء الطبيعة	فريدرش دورنمات
٣٩	رغبة تحت شجر الدردار	يوجين أونيل
٤٠	حورية البحر	هنريك ابسن
٤١	جزاء خدماتهم	سومرست موم
٤٢	ايولف الصغير	هنريك ابسن

ملتزم التوزيع فى الداخل والخارج مؤسسة الخانجى بالقاهرة
وتطلب من المكتبة القومية ٥ ميدان عرابى « القاهرة »
ومن مكتبة المثنى ببغداد ودار العلم للملايين ببيروت ٠